

العبقرية

كيف تصل بذكائك إلى مستوى العبقرية

إمتياز نادر

دار الإسراء عمان - الأردن هاتف : ٤٦٢٠٧١١

سلسلة تنمية مهاراتك البشرية ... الجزء الثالث...

العبقريّة

كيف تصل بذكائك إلى مستوى العبقريّة؟!

كيف تقوي قدراتك الدماغية
وتصل الى ذروتك في الذكاء والذاكرة والإبداع

تأليف

إمتياز نادر

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



{ اللهم علّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علّمتنا }



الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار حورابي للنشر والتوزيع

الإدارة : العبدلي – تلفاكس ٠٠٩٦٢٦٤٦٢٠٧١١

المكتبة : جبل عمان – الدوّار الأول ٤٦١٤٥٩١

جوّال ٠٠٩٦٢ ٧٩ ٥ ٣٨١١٢٨

E-mail: mohumed٨١@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا إلى فكرة هذا الكتاب ووفقنا على جمع معلوماته ليكون في النهاية خلاصة ما وصلة إليه الأبحاث وزبدة ما كشفة عنه التقارير ولب ما تطمح إلى معرفته الألباب .

أما بعد :-

يتحدث كتابي هذا عن المفاتيح التي تكشف عن عبقريتك الكامنة وستتعرف على أن الابداع والعبقرية غالباً ما يأتيان من جراء استثمار الصدف. وسنوضح في كتابنا هذا مفهوم الذكاء حيث سنقوم بتعريفه وشرح مفهومه وتمييز أنماطه والتعريف بأنواعه لننتقل بعد ذلك إلى موضوع غاية بالتشويق يحمل عنوان "إنها العبقرية، وليست المصادفة" لنتعرف بعد ذلك على الإكتشاف المذهل الذي ينمي الذكاء الخارق لدى البشر لنتحدث بعد ذلك عن العبقرية وتنمية القدرات بالإبداع.

ولن نتوقف عند هذا وحسب بل سنتحدث عن موضوع غاية في الأهمية يؤمن به العديد من العلماء النفسيين ويرفضه العديد من الموهوبين ويؤيده البعض وهو موضوع يحمل العنوان " بين العبقرية والجنون" .

لننتقل بعد ذلك للحديث عن الكيفية التي تولد بها العبقرية لنجعلك تكون قادراً على أن تكون عبقرياً إذا أردت في عنوان يحمل أسم " أنت عبقري إذا أردت " .

وإن أردت أن تفكر كما يفكر العباقرة فقد يكون ذلك متاحاً لك في موضوع يحمل أسم " التفكير العبقري " . ولكن هل خطر في بالك يوماً ما أنه قد يكون لليتم علاقة بالعبقرية ؟ سنجيب على هذا التساؤل بالطبع في عنوان بإسم " العبقريه واليتم ـ هل هناك علاقة بين العبقرية واليتيم؟!" .

هل سمعت يوماً بالمقولة الشهيرة التي تقول "إن تاريخ العالم ليس إلاّ سيرة الرجال العظماء" سنفهم معنى هذه المقولة ونستوعب ما تحمله من معان رغم بساطتها في موضوع شيق يحمل عنوان " الإنسان والعبقرية " .

وهل فكرت في يومٍ من الأيام بمدى تطور العبقرية العلمية ومدى تأثير من تخالطهم من العباقرة على أسلوب تفكيرك ستجد الإجابة الواضحة على كل هذا في موضوع يحمل عنوان " تطور العبقرية العلمية" .

وبعد ذلك سننتقل في حديثنا إلى موضوع مميز وله طابع خاص يشدك لقراءته ويثير في داخلك التحدي ويكشف الغموض عن بعض خبايا عقلك وهو موضوع بعنوان " سحر الدماغ ولغز التفوّق " .

لننتقل بعد ذلك للتحدث عن الإبداع وصلته بالاضطراب النفسي في موضوع يحمل عنوان " الحكمة الضائعة في العبقرية " . لنسافر بعد ذلك مابين المخ البشري ومخ إلعباقره في موضوع يحمل نفس الإسم وفي النهاية سنخبرك ببعض الأسرار التي تجعلك تفكر كما يفكر العباقرة . آملاً بعد ذلك أن أكون قد وفقت في إنتقاء المواضيع التي قدمتها في كتابي وأن أكون قد أديت رسالتي كمؤلف وكاتب يسعى لنشر العلم والمعرفة والله الموّفق.

المؤلفة

إمتياز نادر

ما هي المفاتيح التي تكشف عن عبقريتك الكامنة؟

قامت جين ماري ستاين إحدى مشاهير الخبراء في حقل القدرات الإنسانية بدمج آخر ما توصل إليه العلم في مجال الارتقاء بالأداء العقلي في كتابها الجديد (القدرة الذهنية الخارقة) حيث تمنحك الأدوات التي تحتاج إليها لتنشيط ملكاتك الفكرية الست: العقلية، والبصرية، والمنطقية والإبداعية والبدنية والعاطفية.

ومما ذكرته جين ماري ستاين في كتابها الشهير (القدرة الذهنية الخارقة) : هل حدث مرة أن خدعت بإعلان مضلل، أو ضللت في بيان إعلاني عن منظمة تجارية، أو تغاضيت عن عيب معين خاص بوضعك أو بوضع أي شخص آخر ثم انتهى بك الحال إلى الشعور بالندم على ذلك فيما بعد؟

هل حدث وكان لديك قريب فظ ولا تجد طريقة محددة تتعامل معه من خلالها أو أنك لم تستطع فهم السبب وراء إخفاقك في مقابلة عمل هامة، أو فشلت في دمج مجموعة من الشباب الواعدين مدرك لإمكانياتك جيداً في فريق واحد؟

بالطبع حدث لك ذلك، كما أنه يحدث لكل شخص ، حتى ألبرت أينشتاين، العبقري الفذ في القرن العشرين، تمنى أن يكون ذكاؤه أعلى مما كان عليه، عندما وجد أن الرياضيات التي تنطوي عليها نظريته (المجال الموّحد) التي يقصد بها شرح وتوحيد كل فروع الفيزياء، كانت خاطئة.

ويدل مجمل الأبحاث في علم الأعصاب والإبداع والفهم والإدراك وعلم الأحياء النفسي وعلم النفس الإنمائي على أن كل واحد منا ليس لديه نوع واحد من الذكاء، بل ستة أنواع منفصلة، كل منها مرتبط بمنطقة مختلفة في المخ. كثير من الناس – نظراً لخلفيتهم أو لصفاتهم الوراثية يتقدم بهم السن وهم يعتمدون تقريباً على نوع واحد من أنواع الذكاء الستة (حتى أنهم لا يعتمدون عليه اعتماداً

كاملاً) ولا يدركون وجود الأنواع الأخرى، وأنا أسمي هذه الأنواع الستة من الذكاء (عبقريتك) الدفينة.

ومن العنوان الفرعي في الكتاب (إخراج عبقريتك الدفينة) نعيش مع هذا النص: كثير ممن نعتبرهم عباقرة، والذين صنعوا بصمة واضحة في هذا العالم... هم أفراد عاديون نجحوا بالمصادفة السعيدة في أن يعتمدوا على نوع آخر من أنواع الذكاء الستة أو على نوع ثالث في حالات نادرة، أما يقيننا فمصرّون على استخدام سدس بل عشر إجمالي قدراتهم الذهنية.

إن نظرية (ضاعف) الذكاء جديدة جداً، لدرجة أن الخبراء لا يزالون يتجادلون حول العدد الدقيق، وبرغم ذلك، فكل ما اتفقوا عليه هو أن الستة أنواع التي إليه تلعب أدواراً رئيسية في حياتنا اليومية وفي تحديد نجاحنا وفشلنا، وهذه الأنواع الستة هي:

- ذكاء لغوي يشمل عالم الكلمات: الحديث، الكتابة، القراءة، حتى الاستماع.
- ذكاء بصري – يشمل عالم المشهد والرؤية.
- ذكاء منطقي – يشمل عالم المنطق، والتفكير الواعي وأوجه معينة لحل المشكلة.
- ذكاء إبداعي يشمل عالم الأصالة، الابتكار، البصيرة، وابتكار أفكار جديدة.
- ذكاء بدني يشمل عالم الجسم، التنسيق، البراعة، واكتساب المهارات البدنية.
- ذكاء عاطفي يشمل عالم المشاعر، مشاعر الشخص ومشاعر الآخرين كما يشمل علاقة الشخص بذاته وعلاقاته مع الآخرين.

ومن العنوان الفرعي في الكتاب إطلاق عبقريتك البدنية (الحسية) نلاحظ هذه التحليلات التجريبية : يعني هذا الاختيار مستوى الذكاء الجسدي (الحسي) . إذ بإمكانك إحراز تطور وتنقية لقدراتك الجسدية بإتمام الاختبارات التالية:

- تتعلم بسرعة عندما تحصل على آلة أو ماكينة، وتبدأ بتشغيلها بدلاً من الاستماع إلى شخص يعلمك كيفية استخدامها أو مشاهدة شريط فيديو للتعلم، أو قراءة كتيب إرشادات؟
- لديك موهبة تقليد طريقة حركة أو تحدّث الآخرين؟
- تستمتع بالعمل بيديك في الحديقة وإصلاح الأدوات المنزلية..؟
- تؤثر مشاهدة ألعاب القوى الأولمبية، أو مباراة كرة قدم محلية على مشاهدة البرامج الحوارية أو الأعمال الدرامية؟
- تتحدث مستخدماً يديك، وتتحرك بشيء من الإثارة عندما تتحدث مع الآخرين؟
- تستمتع بكوميديا حافلة بالخشونة مثل لوريل وهاردي،.. أو تحب مداعبة أصدقائك؟
- تتألق في أي نشاط بدني مثل السباق، السباحة، أو كرة القدم؟
- تتمتع بتناسق جسدي؟

حساب الدرجات، أجمع عدد الخانات التي قمت بوضع علامة عليها. إذا كان عدد درجاتك بين ١ و٤ فإن مواهبك البدنية لم يطرأ عليها أي تغيير وإذا كنت تتحدث عن قوة جسمك وليس فطنة عقلك، فإنك كمن ينطبق عليه المثل (أجساد متخمة وقوى واهية). وإذا كانت درجاتك بين ٥ و٨ فإن ذكائك البدني لا يزال في حاجة لدفعة قوية. أما إذا كانت درجاتك بين ٩ و١٣ فإن قدراتك البدنية تفوق المتوسط وقليل من الجهد سوف يدفعك إلى قمة قياس مستوى الذكاء البدني.

وإذا كانت درجاتك بين ١٤ و١٦ فإنك تتحلى بقدرات بدنية، وإذا لم تكن صحفياً، أو عبقري إعلانات أو وزيراً، أو مندوب مبيعات أو تكسب قوت يومك من ذكائك البدني فإنك تضيع مواهبك القيمة هباء من المحتمل أنك لا تحتاج لهذه التدريبات، لكنك تريد القيام بها لمجرد المتعة.

****

الابداع والعبقرية في استثمار الصدف

الصدفة عنصر اساسي في الخلق والابداع ففي محاولة تطوير فكرة جديدة ربما تستعمل في نظم الادارة او تطوير نظرية او حتى في نظم قصيدة او تصور عمل جديد يحتاج المرء ان يفعل شيئين:

- تزويد عقله بالبنية اللازمة أي ان يجعل نفسه تتآلف والمشكلة والمعلومات التي ربما في صياغة الحلول المفيدة.
- ان يدخل في تفكيره عنصر الصدفة ومن الطبيعي ان هذا العنصر توفره احداث الحياة اليومية والاحداث غير المروية تدفع العقل الواعي في اتجاهات جديدة فيحدث ربط جديد وتلد فكرة تختبر عقليا فاذا بدت جيدة فانها فعلا فكرة جيدة بما يكفي.

والابداعية تتيح لنا ان نولد افكارا عما يمكن ان يكون في المستقبل وهي اشياء بدونها يستحيل تصورها وبالابداعية يمكن ان نصوغ ونشكل عوالم المستقبل الممكنة التي لما توجد بعد، ولكنها التي نختار بناءها.

يقول ادوارد كورنيش: لاتستطيع الابداعية ان تمنحنا معرفة عن المستقبل ولكنها قد تساعدنا على اكتشاف مفاهيم جديدة ربما تكون ممكنة وجائزة الحدوث وبالنتيجة تساعدنا الابداعية على استخدام الماضي من اجل اكتشاف المستقبل.

وعموما فان النظم الادارية التي هي موضوعنا الاساس تخضع لذات العوامل التي تخضع لها بقية الاشياء فان أي نظام نظري عندما يطبع على الميدان الواقعي فان نقاط هامة منه تظهر على شكل نقاط ضعف فيما ان بعض النقاط التي يشك بفاعليتها والتي نظر اليها منذ البداية على انها نقاط هامشية او احترازية قد تظهر مناطق قوة وفاعلية اكثر مما هو متوقع لها.

وايضا فان الابداعية هي اللاعب الرئيسي في الادارة وقد تستثمر الصدف الجيدة بنباهة وهي كما الصدف السعيدة او ضربات الحظ التي قلما تحدث ولكن في وقت حدوثها يجب ان يكون الباب مفتوحا لها وهنا تكمن النباهة والابداعية.

فسقوط التفاحة كان يحدث على طول الوقت وفي كل زمان فلم جاءت الصدفة بالتفكير لرجل واحد من بين كل الناس ومن اجل تلك اللحظة القصيرة كان الرجل ذاته من العلماء بسبب تلك اللحظة العابرة.

كذلك كانت لحظة التفكير العابرة قد مرت بالمشرح البيلوجي كلفانو عندما اهتزت فخذ الضفدع اثناء التشريح ومن بعدها وبسبب تلك اللحظة كانت الانسانية قد تحصل لديها الاختراع العملي الذي لا غنى عنه في حياتنا المعاصرة وهو البطارية.

ويمكن ان نضيف ان البيئة معلم او مدرس آخر في العمل الاداري فان المجتمع المتحضر له انساق ادارية تختلف عن البيئة المتخلفة التي يراد النهوض بواقعها الاداري الى الدرجة المقبولة ومن ثم ادارة شؤونها فنرى مثلا مضامير الحديد على واجهات المخابز والافران لتسليك المشترين وفق الطابور المنظم، كذلك وجود شرطة المرور بكثرة على المتفرعات والمسلك المرورية رغم وجود الاشارة الضوئية كذلك نجد شروط المعاملات الرسمية وضرورة ان تمر على المختار والمجلس الشعبي ومركز الشرطة ومن ثم الادارة الحقيقية التي تبت بالمعاملة.

فيما لانجد ذلك في الدول المتحضرة علما بان كل هذه الاشياء والتعقيدات قد صاغها المجتمع من خلال مخالفاته وتجاوزاته أي انه هو الذي اعطاها للاداريون لكي يستثمروها في تعقيد الادارة حفاظا على الصحيح والنظيف في آخر المطاف.

ورغم اننا قد نستشيط غضبا ونمتعظ من هذا الروتين الا انه ملائم بدرجة كبيرة لواقعنا البيئي فهو من الطينة ذاتها قد استثمرت بشكل واقعي.

والادارة غالبا تتعامل بحقوق واموال ومعنويات عامة ليس فيها ما هو شخصي ليدخل في مربع المغامرة والثقة القصوى بالآخرين فان الاحتياط الزامي وهو شرعي اكده الدين في ابسط الصور: وهو التكاتب والتشاهد على المكتوب من رجال ذوي عدل.

فعندما نتحدث عن الابداعية فانما لا نلغي الاحترازات والاشكال الاصولية في الادارة وانما الذي يقصد ان الابداعية هي الحاضرة لكل فكرة او فرصة سانحة للتطوير وان كان ذلك يقلل من بعض اشكال الطرق الادارية او تبديلها بما وينسجم مع الفكرة الجديدة.

وقد يكون خوف الاداري من ان يفشل محبطا للفكرة الجديدة وقد لا يستطيع استيعاب الفكرة الجديدة وهو امر سيء سيقف في طريق التفاعل الوظيفي وبالتالي احكام الباب بوجه الصدفة التي منحت الفكرة وجودها المؤقت، وخسرت الادارة فرصة تقدم قد لا تاتي مرة اخرى الا بعد فترة طويلة.

يقول ديان ديكون: لا تخش الفشل اذا قيلت تلك العبارة مرة فلا بد انها قيلت ١٠٠٠٠ مرة في الكتب والمحاضرات ومع ذلك تكون خائفا من ان تفشل انه الخوف الذي يدفعنا الى المحاولة بجدية وباهتمام اكبر كما يدفعنا الى تقييم احكامنا بعد تفكير عميق كجزء اساسي من التفكير السليم وفي المقابل لا يحتاج الخوف من الفشل الى ان يكون لدينا الخوف من ان نفشل فيمكن تحقيق الابداع عن طريق اجراء التجارب المستمرة حيث يعد الفشل جزء من العملية لذا يجب ان نكون

متنبهين الى ان مزج المكونات الخاطئة يمكن ان يؤدي الى فوضى خطيرة تؤدي الى الفشل .. كن خائفا من الفشل ولكن لا تخف من ان تفشل.

وهذا الشعور قد يدخل من مداخله الذهنية بالنسبة للاداري في كونه يشعر ان الزملاء او المحيطين في الادارة هم مرآة التي تعكس فشله الشخصي وقد يتمتعون او يتفكهون به كنادرة او ربما تنهار الصورة الناجحة في اذهان المحيطين، وهذا شعور غير سوي بالنسبة للافراد المتميزين.

ان تجارب الحياة هي التي تفتح مشاعرنا القوية الحب والكره والعدوانية والتعاطف وتصيغ التجارب الحقيقية وتؤسس الاحلام والاهداف والمهام والتصورات وطبيعة تلك التجارب سواء كانت بناءة او هدامة تحدد الحماسوالمتعة التي من خلالها نسعى لاتمام مهامنا فلا تحتاج انت او غيرك في المؤسسة الى التشجيع او عكس الصورة من قبل محفزين سطحيين او الى الاحكام البالية الضحلة من قبل مرشدين مدعين الاستمرار على ما هو عليه.

ان الانغماس في عمل تلك الاشياء يرفع من حرارتنا يسمح لنا من حيث كوننا مطلعين ان نزيد من التحدي ومن خلق شيء جديد يثير نفوسنا .. انه يتعلق بالعمل.. انه يتعلق بالفعل.

****

الذكاء

تعريفه .. مفهومه ... أنماطه .. أنواعه

الذكاء مفهوم إفتراضي ؛ لذا كثر الجدل حول تعريفه ، لذلك أصبح من أكثر الميادين التي حظيت بالدراسة ، والبحث في مجال الفروق الفردية خصوصاً خلال القرن الماضي ، حيث أدت هذه البحوث إلى تطور سريع في قياس الذكاء ، وظهور اختبارته . بل ربما لم يحظ موضوع في ميدان الفروق الفردية مثل ما حظي به الذكاء . فقد كانت الدراسات الأولى في سيكولوجية الفروق الفردية تدور حول الفروق في الذكاء ، كما أن نشأة القياس النفسي وتطوره كانت في ميدان الذكاء ، حتى أن علماء النفس ظلوا لفترة طويلة يسلكون في بحوثهم كما لو كانت الفروق في الذكاء هي الفروق الوحيدة الموجودة بين الناس . ولما ثبت هذا الافتراض ، نقلت الطرق التي أتبعت في إعداد أختبارت الذكاء إلى إعداد أختبارات القدرات الأخرى ، وسمات الشخصية .

وبالرغم من أن طبيعة الذكاء كانت موضوع مناقشة وتأمل لسنوات طويلة من رجال التربية ، وعلماء النفس ، والوراثة ، والاجتماع ، إلا أنه لم يوجد إتفاق تام بل لم يوجد تحديد واضح متفق عليه لمفهومه ومعناه . فالوضع بالنسبة لتعريفه ما يزال كما كان منذ خمسين عاماً تقريباً . ونظراً للتنوع والإختلاف في فهم طبيعتة فقد كان هناك بالضرورة أختلاف في كيفية دراسته وقياسه . وقد يرد سبب هذا الإختلاف على أنه ليس شيئاً مادياً محسوساً . كما أنه لا يقاس قياساً مباشراً ، على الرغم من كونه الأساس في أعظم ، وأفضل الإنجازات الإنسانية ، كما أنه الأساس في أسباب التقدم والحضارة ، والأبتكار . بالاضافة إلى أنه ليس بالقضية السهلة في غياب إتفاق بين علماء النفس حول تعريف القدرة ، فمنهم من عرفه

من حيث وظيفته وغايته ، ومنهم من يعرفه من حيث بنائه وتكوينه . ومنهم من يعرفه بحسب وظيفته وغايته .

تعريف الذكاء : الذكاء مفهوم مجرد اختلف في تعريفه وتحديده علماء النفس والتربية ، ولكنه يدل على "قابلية الفرد على حل المعضلات الفكرية" أو "قابليته على التكيف تجاه المواقف الجديدة" أو" قابليته على التفكير التجريدي والاستفادة من التجارب" لو سالنا انفسنا سؤالا مفاده: ما هو الذكاء ؟ فهل تكون الإجابة سهلة ميسورة؟

لقد شاع استخدام كلمة (ذكاء) بين الناس بحيث يستخدمها الخاص والعام والصغير والكبير وهي تعني عندهم : سرعة البديهة ، وحسن الحكم على الأشياء وسرعة الاستجابة .

" ولكن في الحقيقة : الذكاء ليس بذاك المفهوم الذي يمكن تعريفه بسهولة وهناك اختلاف حتى بين الأخصائيين ، حول كيفية تعريفه وتحديد صفاته ، وذلك لأن كلمة (ذكاء) هي اسم يستخدم للدلالة على شيء أو غرض له مواصفات أو ميزات محددة لكن الذكاء في الحقيقة هو : مفهوم مجرد عالي التعقيد ليس له صفات محددة كالطول أو القصر أو اللون أو الوزن .

"وهناك من يعرف الذكاء بأنه المقدرة الفعلية ، ومن هنا يحكم على الشخص الذي يحل مثلاً الكلمات المتقاطعة بسرعة أنه ذكي ، والذي يعجز عن حلها بنفس الأسلوب يصفه بأنه متدني الذكاء . وفي الحقيقة فهذا استنتاج غير دقيق أو أكيد ؛ لأن هناك أسباباً أخرى ربما تداخلت مع تصرف كل منهما لتحقيق تلك النتيجة . فالنتيجة المتدنية في اختبار الذكاء المباشر قد تعزى إلى شعور الشخص بالتعب أو قلة الاهتمام وقلة الإثارة ، و القلق لخوض الاختبار أو أي أسباب أخرى مما لا علاقة له بتدني الذكاء .

ويعرف سيبرمان الذكاء بأنه القدرة على إدراك العلاقات وخاصة العلاقات الصعبة أو الخفية . ويقسم فريمان تعريف الذكاء إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: تكيف الفرد أو توافقه ، مع البيئة الكلية التي تحيط به . ومن أمثلة هذا تعريف بنتنر pintner للذكاء بأنه قدرة الفرد على التكيف بنجاح مع ما يستجد في الحياة من علاقات.

النوع الثاني: هو القدرة على التعلم ووفقاً لهذا التعريف يصبح ذكاء الفرد مرهون بمدى قابليته للتعلم ومن أمثلة هذا النوع تعريف ديربون dearborn للذكاء بأنه القدرة على اكتساب الخبرة والإفادة منها .

النوع الثالث: القدرة على التفكير المجرد وهذا هو التعريف الذي قدمه لنا لويس ترمان، غير أن هناك بعض الاعتراضات على هذا التعريف إذ أنه يتضمن أن الذكاء لا يمكن أن يظهر في المستوى العياني أو الحسي.

النوع الرابع : هذا النوع من التعريفات أكثر اتساعا في نظرته من الأنواع السابقة ومن أمثلته تعريف ويكسلر للذكاء بأنه (القدرة الكلية لدى الفرد على التصرف الهادف والتفكير المنطقي والتعامل المجدي مع البيئة .

وبالنظر للتعريفات السابقة نجد أنها متعددة وكل منها يتناول جهة معينة في تعريفه للذكاء ، وهو بطبيعة الحال يرجع إلى وجهة نظر صاحب التعريف ، فسيبرمان يركز في تعريفه للذكاء بأنه القدرة على إدراك العلاقات ، وأما بنتنر pintner فإنه يتناول قدرة الفرد على التكيف بنجاح مع ما يستجد في الحياة من علاقات ، وأما ديربون dearborn فيؤكد بأنه القدرة على اكتساب الخبرة والإفادة منها .

أنماط الذكاء : مما سبق يتضح لنا أن فكرة قياس حاصل الذكاء سيطرة على كثير ممن تعرضوا لتعريف الذكاء ، ومن هنا رأينا بعضهم يصف الذكي بأنه من يحل بعض المسائل الحسابية أو الألغاز اللغوية .

وهذه الفكرة يرى بعض العلماء أنها اختلفت بل يرى أنها أصبحت بالية نظرا لضيق أفقه ، لأنه يتعلق بالأدمغة التي تفكر بطريقة معينة فقط ، وهو نهج تحليلي كمي وليس نوعي .

ويرى هاورد جاردنر من كلية هارفرد للتربية أن للذكاء ستة أنماط لدى معظم الناس ، ويكاد كل شخص يكون مبرزاً في واحد منها على الأقل وهي :

الذكاء اللغوي : ويتضمن البراعة في التعامل مع الكلمات المنطوقة أو المكتوبة .

الذكاء الموسيقي : هو القدرة على تذوق أو إبداع أنماط من النغم والإيقاع .

الذكاء المنطقي : وهو القدرة على التعامل مع سلسلة طويلة من الأفكار في آن .

الذكاء الحيزي : النحاتون والرسامون والمصممون يتمتعون به.

الذكاء البدني : وهو القدرة المتقنة على التحكم بالحركة .

الذكاء الشخصي : وهو القدرة على فهم تصرفات الآخرين ومشاعرهم ودوافعهم وهذا الذكاء الشخصي الداخلي يظهر في مرحلة مبكرة من العمر .

ويترتب على هذا التصور ضرورة أن تركز عمليات التنشئة والتعليم على مزيج الذكاء الفريد الخاص بكل طفل، وشديد التنوع في أي مجموعة من الأطفال. وهنا منشأ حتمية أن تتمركز عمليات التنشئة والتعليم على الطفل الفرد، إن كان

للبشرية أن تتيح لكل إنسان حقه الجوهري في تحقيق الذات إلى أقصى حد ممكن، من خلال تنمية المواهب .

فالطفل الذي تبرز لـديه الاستعدادات الجسدية-الحركية مثلاً يجب أن يُشجع على تنميتها بدلا من العمل على حبس نمو الأطفال في إطار تنمية المهارات اللغوية والمنطقية فقط كما يحدث في أشكال التعليم التقليدية.

وجدير بالإشارة إلى أن أساليب حفز الذكاء تتنوع من صنف لآخر، وعليه، فإن طرائق التنشئة والتعليم لابد أيضاً أن تتنوع بما يتناسب مع تنوع ذكاوات الأطفال. ولا فكاك، والحال كذلك، أن تفسح أساليب تقييم الذكاء والقدرات المجال لاعتبار صنوف الذكاء كافة.

فكل طفل يمتلك موهبة مـن نوع ما، يتوقف تبلورها، في النهاية ، أو كبتها، على ثراء استثارة محيطه الاجتماعي، في الأسر والمؤسسات التعليمية، لتكوين مخه وقدراته. ولذلك يختلف مدى، وتضاريس، خريطة بزوغ القدرات بين الأطفال من مجتمع بشرى لآخر.

ويفتح مفهوم تعدد الذكاءات باب الابتكار والإبداع في مجالات التنشئة والتعلم واسعاً. والواقع أن الإعجاب بالمفهوم والتعلق به يزداد بين المعلمين المخلصين لرسالة التعليم السامية والبارعين في القيام بها، حيث يعتبرونها المدخل الأساس في إنشاء علاقات وثيقة ومتميزة مع تلاميذهم تمهد لهؤلاء التلاميذ الطريق لاستكشاف قدراتهم الكامنة وتنميتها في سياق تعليمي محبب، ينهض على تنويع الأساليب التعليمية بما يناسب تنوع قدرات الأطفال، ويؤدي لزيادة حرصهم على التعلم، وتمتعهم به، بما يعمق من تبصرهم بمكنونات انفسهم ويمكنهم من تحقيق ذاتهم، ويرفع من ثم، مكانتهم في محيطهم العائلي والاجتماعي، ويصبح ، في النهاية، بالغ الجدوى لنجاحهم في الحياة، ولازدهار الحياة.

أنواع الذكاء : لقد وجهنا الله سبحانه في كثير من الآيات القرآنية إلى استخدام قدراتنا العقلية حتى نصل إلى اكتشاف الحقائق والأدلة والبراهين العقلية المؤيدة لحقيقة الكون الإلهي.

وعادة ما نطلق على مثل هذه القدرات تعبير (الذكاء المجرد) و(الذكاء التجريدي). وهناك نوع آخر من الذكاء تناوله القرآن الكريم ألا وهو ما يسمى بالذكاء الاجتماعي بشكل مقبول ومعقول، وفق المعايير والأسس المتفق عليها، بالإضافة إلى القدرة على استخدام الخبرات المتعلمة في المواقف الجديدة.

والذكاء هو الوجه الآخر لمفهوم القدرات العقلية، إذ أنه وكما هو معروف، لا توجد آلة أو جهاز يمكن عن طريقه التعرف على ما لدى الفرد من قدرات عقلية أو التوصل إلى مستوى ذكائه. ولكن يمكن تقدير مستويات الذكاء نسبياً بشكل غير مباشر عن طريق ملاحظة السلوك العام أو بعض مظاهر السلوك أثناء تأدية الفرد لبعض النشاطات العقلية نظرية كانت أم عملية أم اجتماعية.

فإذا ما استطاع الفرد أن يستخدم قدراته العقلية في التوصل من العام إلى الخاص مثلاً، فإن ذلك يعتبر مظهراً من مظاهر الذكاء.

وقد تبدو مظاهر الذكاء في اتجاه الإنسان إلى التفكير في وجود السماوات والأرض وطبقات الجو وما خلق الله من إنسان ودواب وطيور وأشياء مادية أخرى، وفي نظام الكون وإحكام تدبيره، ونوع ما يؤدي به إلى التعرف على الحقائق واكتشاف ما خفي منها عن الأذهان .

وعادة ما يتحدد الذكاء بالعامل الوراثي بنسبة ٦٠ ٪ إلى ٦٥ ٪ كما أن الذكاء يمكن أن يكون ذكاء اجتماعياً أو ذكاء حسابياً ، فالذكاء الاجتماعي هو القدرة على إقامة العلاقات الاجتماعية وعلى التصرف وسط الجماعة بتلقائية ونجاح، وهو الذي يأتي من خلال التنشئة الاجتماعية ومن خلال درجة الاختلاط بالبيئة

المحيطة بالطفل ودرجة السماح له بالتعامل مع المتغيرات البيئية والقدرة على الاحتكاك الاجتماعي وزيادة المؤثرات التي تنمي قدراته العقلية وتظهر مواهبه .

أما الذكاء الحسابي فهو القدرة على حل المشاكل والقدرة على ربط الأشياء ببعضها واستنباط العلاقات التي تقاس بالاختبارات والمقاييس السيكولوجية التي تحدد قدرة الطفل على حل المشاكل عن طريق التفكير بينه وبين نفسه .

وعندما نتحدث عن الذكاء بصورة عامة سواء كان حسابياً أم اجتماعياً ، فمما لا شك فيه أن الطفل الثالث أو الرابع في الأسرة تكون فرصته أكبر في مستوى ذكائه كلما أتيحت له الظروف الملائمة وكانت خبرة الوالدين أعمق في التنشئة السليمة والاستفادة عن طريق تجنب أخطاء سابقة مع الطفل الأول أو الثاني.

وإذا كان العلماء اختلفوا في تعريف الذكاء ، وأعطوه أكثر من تفسير أو تعريف . من أهمها أن الذكاء يعني قدرة الإنسان على ربط العلاقة بين الأشياء ، أو أنه : هو القدرة على التفكير السليم والاستنباط ؛ بمعنى استنتاج المعنى من وراء أي كلمة أو مفهوم والاستفادة من الخبرات السابقة وبعد النظر في الحكم على الأمور، أو أنه يعني القدرة على حل المشاكل بتلقائية دون الاستعانة بالخبرات المشابهة السابقة وأن الذكاء هو القدرة على إقامة العلاقات الاجتماعية مع القدرة على التصرف في وسط الجماعة.

الذكاء الوجداني : " الذكاء ليس شيئاً يوجد مباشرة في الطبيعة قد ننجح في عزله وقياسه ، فهو مفهوم نجده صالحاً لوصف سلوك الإنسان . لذلك فإن هناك ذكاء من نوع آخر وهو ا لذكاء الوجداني.

وتتفاعل في تكوين الذكاء الوجداني، بدوره، قدرات متعددة، بعضها نفساني والآخر اجتماعي، تشمل ضبط النفس، والتحكم في المزاج، والحماس، والمثابرة، وحفز الدافعية الذاتية، وإرجاء الإشباع، ومنع الإحباط من تعطيل القدرة على

التفكير، وإعلاء الأمل، والتعاطف مع الآخرين.

وكل هذه القدرات يمكن اكتسابها إلى حد بعيد من خلال التنشئة والتعليم السليمين، الأمر الذي يمكّننا من اكتساب مستوى مميز من الذكاء الوجداني.

الذكاء الإجتماعي : يعكس هذا النوع من الذكاء قدرة الفرد على فهم وإدراك وملاحظة مشاعر الآخرين وحالاتهم المزاجية، واحتياجاتهم، وتنعكس هذه القدرة في مهارات تعامل الفرد مع الآخرين وتحفيزهم.

يتمتع بهذا النوع من الذكاء: المعالجون النفسيون، رجال المبيعات، المدرسون، المستشارون، مرشدو الشباب، العاملون في المجال الاجتماعي، رجال الدعوة، المدربون الرياضيون، مشرفو نشاط الأطفال .

مميزات الذكاء الاجتماعي : يتميز من يتمتع بهذا الذكاء بالصفات التالية:

- يستمتع بصحبة الناس أكثر من الانفراد.
- يبدو قائدًا للمجموعة.
- يعطي نصائح للأصدقاء الذين لديهم مشكلات.
- يحب الانتماء للنوادي والتجمعات أو أي مجموعات منظمة.
- يستمتع بتعليم الآخرين بشكل كبير.
- لديه صداقة حميمة مع اثنين أو أكثر.
- يبدي تعاطفا واهتماما بالاخرين .
- الآخرون يبحثون عن تعاطفه أو اهتمامه وصحبته.
- يسعى الآخرون لمشورته وطلب نصحه.
- يفضل الألعاب والأنشطة والرياضات الجماعية.
- يسعى للتفكير في مشكلة ما بصحبة الآخرين أفضل مما يكون بمفرده.
- يبدو جذابا مشهورًا له شعبية.
- يعبر عن مشاعره وأفكاره واحتياجاته.

- يحب المناقشات الجماعية والاطلاع على وجهات نظر الآخرين وأفكارهم.
- يمكنه التعرف على مشاعر الآخرين، وتسميتها.
- يمكنه الانتباه لتغير الحالات المزاجية للآخرين.
- يحب الحصول على آراء الآخرين ويضعها في اعتباره.
- لا يخشى مواجهة الآخرين.
- يمكنه التفاوض.
- يمكنه التأثير في الآخرين.
- يمكنه عمل مناخ جيد أثناء وجوده.
- يمكنه تحفيز الآخرين ليقوموا بأفضل ما لديهم

إذاً الذكاء الاجتماعي هو القدرة على التعامل بفاعلية مع الآخرين ، ويتضمن القدرة على فهم الناس ، والتعامل معهم ، والتصرف في المواقف الاجتماعية . كما يرى بأن الذكاء الإجتماعي يتغير تبعاً للسن والجنس والمكانة الإجتماعية . فالبعض يستطيع التعامل مع الراشدين ، بينما لا يستطيع التعامل مع الأطفال . كما أن البعض يجيد القيام بدور القيادة في الجماعات ، بينما يجد آخر الرضا والارتياح في أن يترك القيادة لغيره من الناس . كذلك يؤكد بعض العلماء على دور الذكاء في النجاح الإجتماعي ، حيث يرون أن النجاح في المجتمع يحتاج إلى نسبة عالية من الذكاء .

في حين يعرفه جوداينف بأنه القدرة على الأستفادة من الخبرة للتوافق مع المواقف الجديدة ، ويعرفه بينتر بأنه قدرة الفرد على التكيف بنجاح مع ما يستجد في الحياة من علاقات . في حين تؤكد بعض التعريفات على أهمية التفكير ، وخاصة التفكير المجرد في تكوين الذكاء ومن أمثلته تعريف سبيرمان حيث يعرفه بأنه القدرة

على إدراك العلاقات ، وخاصة العلاقات الصعبة أو الخفية ، والقدرة على إدراك المتعلقات .

فعندما يوجد أمام الفرد شيئان فإنه يدرك العلاقة بينهما مباشرة ، وحينما يوجد شئ وعلاقته ، فان الفرد يفكر مباشرة في الشئ الآخر معه بهذه العلاقة . أما تيرمان فيعرفه بأنه القدرة على التفكير المجرد . ويعرفه كلاً من كهلر ويتمرز بأنه القدرة على الإستبصار . أما ثيرستون فيرى بأن الذكاء مكون من سبع قدرات عقلية أساسية وهي القدرة اللفظية ، الطلاقة الكلامية ، القدرة العددية ، القدرة على الإستدلال ، والقدرة على إدراك العلاقات المكانية ، القدرة على التذكر ، وسرعة الادراك .

الذكاء الاجتماعي.. شرط النجاح في الحياة الحديثة : يعرف الذكاء الاجتماعي بأنه القدرة على فهم الناس وتكوين علاقات اجتماعية ناجحة معهم، ويختلف عن الذكاء اللفظي أو المعنوي الذي يعرف بأنه القدرة على فهم واستخدام الرموز والألفاظ والمعاني وإدراكها بشكل فعال، ويختلف أيضاً عن الذكاء العملي الذي يظهر بشكل واضح من خلال المهارات العملية اليدوية الميكانيكية والتعامل مع الأشياء المادية المحسوسة، وهناك تعريفات عدة للذكاء الاجتماعي، فعلى سبيل المثال يمكن تعريفه بأنه القدرة على إدراك العلاقات الاجتماعية والتفاعل الجيد مع الناس، وحسن التصرف في المواقف الحياتية اليومية والأوضاع الاجتماعية المختلفة والقدرة على التكيف معها، مما يؤدي إلى شعور الفرد بالتوافق الاجتماعي ويعمل على نجاحه في الحياة الاجتماعية، ايضاً يمكن أن يعرف بأنه حسن التصرف في المواقف الاجتماعية، والقدرة على التعرف إلى الحالة النفسية للمتحدث والقدرة على تذكر الأسماء بما فيها الأشخاص والأماكن، والقدرة على تمييز الوجوه وسلامة الحكم على سلوكيات البشر والقدرة على مشاركة الناس في مختلف المناسبات الاجتماعية بما فيها أفراحهم وأتراحهم. وللذكاء الاجتماعي مظاهر عامة، نستطيع من خلالها تمييزه، وتتلخص أهم هذه المظاهر في أمور عدة أهمها:

النجاح الاجتماعي، ويشمل النجاح في التعامل مع الآخرين والقدرة على فهمهم والتواصل معهم، وكذلك النجاح في الاتصال الاجتماعي مهنيا وإداريا. الكفاءة الاجتماعية، وتتضمن السعي لتحقيق الرضا في العلاقات الاجتماعية، وتحقيق التوازن المستمر بين الفرد وبيئته الاجتماعية لإشباع الحاجات الشخصية والاجتماعية. التوافق الاجتماعي، بمعنى تحقيق السعادة مع الآخرين والالتزام بأخلاقيات المجتمع ومسايرة القيم والمعايير الاجتماعية والامتثال لأهم قواعد الضبط الاجتماعي وتقبل التغير الاجتماعي والتفاعل السليم والعمل لمصلحة الجماعة وتحقيق السعادة الزوجية، مما يؤدي إلى تحقيق الصحة الاجتماعية. المسايرة، بمعنى الالتزام سلوكيا بالمعايير الاجتماعية في المواقف والمناسبات الاجتماعية. مراعاة الذوق العام للمجتمع، وتشمل اتباع سلوكيات مرغوبة اجتماعيا والتعامل السليم واللبق مع الآخرين من خلال تطبيق أساليبه وفنياته.

أما مظاهره الخاصة فتتمثل في: حسن التصرف في المواقف الاجتماعية، من خلال التصرف السليم والتحلي باللباقة والالتزام بالمعايير الاجتماعية في المواقف الاجتماعية العامة ومواقف التفاعل الاجتماعي والمعاملات دون احراج الفرد وإحراج الآخرين ودون اللجوء إلى الكذب والنفاق. التعرف إلى الحالة النفسية للآخرين، بمعنى القدرة على تمييز الحالة المزاجية للأشخاص من خلال طريقة تحدثهم وتصرفهم، كما في حالة الفرح أو الحزن أو الغضب أو الثورة. القدرة على تذكر الأسماء والوجوه، وتشمل اهتمام الفرد بالآخرين وقدرته على تذكر وجوههم وأسمائهم. روح الدعابة والمرح، وتشمل القدرة على فهم النكتة من خلال الاشتراك مع الآخرين في مرحهم ودعابتهم وظهور علامات المحبة والألفة المتبادلة مع الآخرين.

وأخيراً فإن من أهم واجبات الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام العمل على رعاية الذكاء الاجتماعي وتنميته لدى الأطفال والبالغين من الشباب، عن طريق

تعليمهم مهارات التصرف الاجتماعي الذكي والسليم في كافة المواقف من خلال تطبيق المعايير السليمة والقيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية، عن طريق تدعيم المظاهر العامة والخاصة للذكاء الاجتماعي من خلال عقد الدورات والبرامج الاجتماعية المتميزة والتي تختص بهذا النوع من الذكاء.

الذكاء الاجتماعي ميزة ولا شك، ولكن إذا كان صحيحا ما يقوله الناس من أن القدرة الناجحة على بناء العلاقات هي البوابة الوحيدة للنجاح في مجتمعنا فنحن أمام مشكلة حقيقية، وهذه المشكلة ترى آثارها في كثير من قصص الفشل الإدارية أو المهنية. المشكلة هنا عندما يتم منح منصب معين أو مسؤولية معينة لشخص لا يمكنه فعلا القيام بها، ولكنه فاز بهذه الثقة فقط بسبب قدراته الاجتماعية المميزة، وهذا يعني أن تجد مديري شركات ورؤساء لجان ومسؤولين حكوميين قادرين على بناء علاقات اجتماعية قوية ولكن قدرتهم الحقيقية على التفكير والتخطيط والعمل الجاد والدؤوب محدودة جدا، الأمر الذي يمثل في كثير من الأحيان الخطوة الأولى نحو الفشل.

بل إنك لو راقبت الأمر لوجدت أن كثافة العلاقات الاجتماعية تتناقض في كثير من الأحيان مع النجاح في العمل، وباستثناء بعض المناصب والمهن، فإن النجاح في العمل يتطلب الاستفادة من كل دقيقة وقت في إنجاز العمل، وهذا يتعارض من متطلبات العلاقات الاجتماعية عادة التي تعني قضاء وقت طويل على الهاتف أو في المناسبات الاجتماعية والسهر حتى وقت متأخر من الليل .. إلخ.

****

القدرات العقلية

القدرة الابتكارية والتفكير العلمي والموهبة

يحظى موضوع القدرة الابتكارية والتفكير العلمي والموهبة باهتمام كبير من قبل العلماء والمتخصصين في علم النفس والتربية منذ النصف الثاني من القرن الماضي،والدليل على ذلك،الزيادة المطردة في عدد البحوث والدراسات التي تنشر في مختلف بلدان العالم،مما يبرز مدى الاهتمام المتزايد بالقدرة الابتكارية من قبل الباحثين السيكولوجيين والمربين.

ويرجع هذا الاهتمام المتزايد الى التطورات الحديثة التي يشهدها علم النفس ، وعلوم التربية من جهة ، والتقدم العلمي والتكنولوجي من جهة أخرى ، بالإضافة الى توجه العلماء الى دراسة الابتكار كقدرة عقلية نامية ، يمكن تربيتها منذ السنوات المبكرة من حياة الفرد ، وذلك بالكشف عنها بواسطة اختبارات ، وطرق علمية تساعد على انتقاء الأفراد الذين يتميزون بهذه القدرة لتوفير المناخ البيئي والتربوي المناسب لنموها نموا سليما.

ولا شك ان الاهتمام بالمبتكرين والقدرات الابتكارية له ما يبرره ، ذلك انه من مقومات الحضارة الإنسانية ، إذ ان الحضارات وجدت بالعقول المبتكرة ، وبقيت صامدة في وجه الأحداث بما تحتويه من مبتكرات أبنائها مثل، الحضارة اليونانية،والحضارة الصينية وغيرها من الحضارات،مما يعني ان الأمم ترقى وتزدهر بما لديها من عقول نيرة مبتكرة.ومن هنا نجد المربين اليوم يولون اهتماما بالغا بالمبتكرين ، ومحاولة البحث عنهم ، وتخصيص لهم الأقسام الخاصة بهذا بغرض تربيتهم تربية تتوافق مع قدراتهم الابتكارية.

لقد بدأت مجتمعات العالم الثالث تتفطن في السنوات الأخيرة الى أهمية العقول المبتكرة في بناء الحضارة ، وتقليص الهوة التي تفصلها عن المجتمعات المتطورة ،

فخصصت لذلك الأموال الطائلة ، وبدأت تغير أنظمتها التربوية وتوجيهها وجهة تتوافق مع أهدافها ومطامحها لتحقيق الغايات المنشودة ، إيمانا منها بأهمية عنصر التجديد في الحضارة،وهو ما يعني الإيمان بأهمية التربية في بناء وتجديد الحضارة، حيث ان عنصر التجديد هو من أهم مقوماتها.

والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها،ان الحضارة اذا فقدت عنصر التجديد لسبب ما ،فإنها تصبح مهددة بالركود،ثم الانحطاط..وإذا كان للإصلاح عدة أغراض،فان من أهمها،شحذ عبقرية الأمة ودفعها الى الإبداع والتجديد انطلاقا من خدمة التراث الأصيل.فالاكتشاف لمجاهل الكون ، هو إثراء للمعرفة وللمنظومة التربوية بحكم موقعها كالعمود الفقري في كيان الأمة الحضاري الشامل والمتكامل،والتي تحتاج الى الإصلاح لتساهم بدورها في عملية التغيير المنشود.فالتربية هي من أهم وسائل الرقي الحضاري والازدهار الثقافي . وبذلك يمكن القول ان الحضارة اذا خلت من عنصر التجديد ، فإنها تفقد حيويتها ونموها.

وإذا كانت المدرسة في مرحلتيها الأولى والمتوسطة ، تمثل حلا بديلا للمشكلة التربوية ، فان السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الاتجاه هو، الى أي حد تساهم المدرسة في تنمية قدرات ومواهب وآراء الأفراد المتعلمين وخاصة فيما يتعلق بالقدرة على التفكير الابتكاري التي تعد من أهم القدرات العقلية التي تجعل الفرد يساهم في عملية البناء الحضاري؟،ذلك باعتبار ان الأمم اليوم ترقى وتزدهر بما لديها من عقول مبتكرة ومجددة.

والحقيقة أن الإجابة على هذا التساؤل المطروح ، تتطلب دراسة علمية ، تكشف عن مدى العلاقة القائمة بين ما يحصله الفرد المتعلم في هذا النظام التربوي وقدرته الابتكارية،فضلا عن تكوينه في الجوانب الأخرى من شخصيته،ذلك ان شخصية الإنسان تبقى وحدة متكاملة غير قابلة للتجزئة.

مفهوم القدرة العقلية : لا شك ان مفهوم القدرة العقلية،يعد مصطلحا حديث الظهور(نسبيا)،فقد نشأ هذا المفهوم في ميدان علم النفس التطبيقي ، وكان في نهاية القرن التاسع عشر متصلا بالدراسات التجريبية،وفي بداية القرن العشرين ، ظهر في فرنسا مرتبطا بقياس الذكاء في أبحاث العالم "الفرد بينه" ثم تطور على يد العالم الانجليزي "تشارلز سيبرمان" الذي رفض مصطلح "الذكاء" لأنه يحمل الكثير من المعاني، وقام باستبداله بمصطلح "العامل العام" الذي يعبر عن الطاقة العقلية العامة التي تهيمن على جميع النشاطات العقلية الأخرى،وذلك حسب مقتضيات نظريته المعروفة بـ"نظرية العاملين" .

ويتفق معظم علماء النفس على التعريف الاجرائي للقدرة العقلية ، باعتبار انه ما ينتج عن الأداء العقلي ، كالقدرة العديدية ، والقدرة الابتكارية ، حيث يرى العالم "فيري وارن" ومعه "بينجهام" ان القدرة العقلية هي "القوة على أداء الاستجابة،وتشتمل على المهارات الحركية،كما تشتمل على حل المشاكل العقلية" وهو ما يعني التخلص من المفهوم الفلسفي للقدرة العقلية ، واعتبار الاستجابة موقفا مشخصا لهذه القدرة من حيث ان الاستجابة لا يقوى عليها الفرد إلا بفضل هذه القوة الواعية.

كما اعتبر العالمان المذكوران ، ان الاستجابة لا تخلو من هذه القدرة او القوة التي تتجلى فيها القدرة العقلية.والواقع انه اذا كنا لا نجهل أهمية الوعي في سلوك الفرد الاصطفائي،فإننا لا نستطيع اعتبار ان كل الاستجابات هي استجابات واعية، والسبب في تبني هذه الرؤية يعود الى ان الرجلين(وارن_وبينجهام) كانا ينتميان للمدرسة السلوكية التي بنيت نظريتها النفسية على عاملي المنبه(المثير) والاستجابة.

أما العالم "ثرستون" فيرى ان القدرة العقلية هي صفة يحددها سلوك الفرد،أي بمعنى أنها صفة تتحدد بما يمكن ان يؤديه الفرد او ما يقوم به" .فهي(القدرة

العقلية) صفة تظهر نتيجة لأداء معين ، وبهذا فإنها تمثل سلوكا ظاهريا يمكن ملاحظته وبالتالي قياسه.

- جاء ضمن تعريفات معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية على لسان مؤلفه د. احمد زكي بدوي التعريف التالي:" القدرة العقلية تعني مقدرة الفرد العقلية على إنجاز عمل ما او التكيف في العمل بنجاح..وهي تتحقق بأفعال حسية او ذهنية،وقد تكون فطرية او مكتسبة(عن طريق التعلم)،كما ان هناك قدرات عامة،وهي تمثل عامل مشترك بدرجات متفاوتة مع جميع القدرات الخاصة او مع مجموعة منها" .

الملكـة العقلية..وكيفية تنميتها:

الملكة العقلية هي قوة عقلية او فكرية او شعورية او إرادية ، تعتمد أساسا لتفسير الظواهر العقلية،وكان ينظر لها في السابق على أنها إحدى قوى العقل البشري كالذكاء او الإرادة.وتفسر عن طريق عملها وتفاعلها مع جميع الظواهر العقلية،إلا ان علماء النفس عدلوا عن هذا الرأي .

وقد بنيت هذه النظرية بالأساس على التأملات الفلسفية منذ أيام ارسطو، بالإضافة الى التفسيرات الفرضية التي كانت تقسم الدماغ تشريحيا ووظيفيا الى أقسام منفصلة يسفر كل منها عن إحدى نواحي النشاط العقلي كملكة التذكر، وملكة الانتباه، وملكة التخيل وغيرها من الملكات الأخرى ، ونتيجة لهذا المفهوم او التفسير للعقل البشري ،ظهرت نظرية"التدريب الشكلي" التي ترى انه من أجل تنمية ملكة من الملكات يجب توافر الشروط الضرورية لتدريبها، وكان هذا التدريب يعتمد على المواد الدراسية،حيث انه من أجل تكوين ملكة التذكر (مثلا) ينبغي اختيار المواد الدراسية التي تنمي هذه الملكة ، كالمحفوظات وغيرها من المواد التي تعتمد على الحفظ،وكذلك لتنمية ملكة التفكير لا بد من تدريس مادة الرياضيات،ويجب ان يكون المنهج الدراسي حسب نوعية الملكات المراد تدريبها

وتنميتها لدى الفرد المتعلم أما دوافعه واهتماماته،فم يكن لها اعتبار،ولذلك برز منهج المواد الدراسية المنفصلة في التربية والتعليم انطلاقا من اعتبار ان كل ملكة منفصلة عن الأخرى.وبالتالي كانت المواد الدراسية منفصلة أيضا عن بعضها البعض كالرياضيات، والقراءة ، والمحفوظات ، والعلوم..الخ.

لقد ارتكزت هذه النظرية على فروض منطقية من حيث التناسق والبناء، التي يمكن حصرها في النقاط التالية:

- ان السلوك يتأثر بمجموعة من الملكات العقلية المستقلة عن بعضها البعض،كالتفكير والادراك والتذكر ..الخ.
- ان الملكات العقلية يمكن تنميتها من خلال تدريبها على أنواع معينة من التمارين.
- ان أثر التدريب الخاص بالملكات العقلية،ينتقل الى كل نواحي الحياة المتعلقة بكل ملكة على حدة.

إنها العبقرية، وليست المصادفة

أكد عدد من علماء طب التشريح الكنديين أنهم اكتشفوا ما يمكن ان يكون سر عبقرية العالم الفيزيائي الالماني البرت اينشتاين، وذلك بعد ان قاموا بإجراء فحوصات على دماغه المحتفظ به منذ وفاته قبل خمسة وأربعين عاما. وقال هؤلاء العلماء: إن الجزء الذي يستخدم في حل المعضلات الرياضية عند اينشتاين أوسع من المألوف عند غيره، كما اكتشف العلماء ايضا ان دماغ اينشتاين ليست فيه الاخاديد المميزة التي توجد في الادمغة العادية، ويرون ان ذلك يمكن من الاتصال بخلايا الدماغ بصورة أوثق لتطوير الجزء الذي يستخدم في حل المعضلات الرياضية .

العبقرية والدماغ : ومعروف ان اينشتاين هو صاحب نظرية «النسبية» التي تعتبر أساس الفيزياء المعاصرة، ونال جائزة نوبل عام ١٩٢١. أما الجديد والمثير في هذا الاكتشاف، فهو إمكانية التوصل الى سر العبقرية التي تميز العلماء والمبدعين في المجالات كلها عن غيرهم من سائر البشر، والتي هي دون شك مرتبطة بالدماغ هذا الجهاز الذي توجد فيه مراكز الحس والحركة والذاكرة والتفكير والكلام، أي مادة العقل البشري، وهو الذي يفصل بين انواع المخلوقات تبعا لحجمه الذي يبلغ أرقى مستوياته عند الانسان، حيث تبلغ النسبة بين وزنه ووزن الجسم ١/ ٤٥ بينما تبلغ عند الغوريلا أو الشمبانزي - التي هي الاقرب الى الانسان في تشريحها - نحو ١/ ٢٥٠ ثم تقل عن ذلك كثيرا في الحيوانات الادنى من الانسان والغوريلا.

مما يروى عن إينشتاين انه كان مولعا بتربية الحيوانات الاليفة، وكانت لديه قطة تمادت في إزعاجه كلما أرادت الدخول أو الخروج من الباب بينما هو مشغول بأبحاثه، فما كان منه إلا ان قام بعمل فتحة صغيرة في أسفل الباب كي تتمكن من الدخول والخروج كلما عنّ لها ذلك دون ازعاج، وبهذه الفكرة العبقرية استطاع التخلص من ازعاجها وحل المشكلة، وبعد فترة ولدت القطة ثلاث قطط صغار، فما كان من العالم الكبير إلا ان قام بعمل ثلاث فتحات صغيرة الى جانب الفتحة الاولى لتدخل وتخرج منها القطط الصغار هي الاخرى دون ازعاج، وغاب عن عالمنا انها تستطيع ان تفعل ذلك من خلال الفتحة الاولى دون الحاجة الى تحويل الباب الى ما يشبه الغربال، ما الذي يمكن ان نصف به شخصا غير اينشتاين لو حدث منه ذلك؟ أم انها العبقرية التي تحيط بأعظم الاشياء وتغفل عن الامور البسيطة وتغفر لصاحبها ما لايغتفر لغيره.

تحفل سير العلماء والمفكرين بنماذج كثيرة لهذه التصرفات التي لاتصدر عن اشخاص عاديين، كما ان العديد من المواقف في حياتهم أسفرت عن اكتشافات مثيرة ومهمة خدمت البشرية وتركت آثارا بالغة في مسيرة الانسانية، ربما كان للمصادفة دور كبير فيها.

ظاهرة شاذة بين العقول : يعد اسحاق نيوتن من اكبر واشهر علماء الانكليز وقد ولد ضعيفا هزيلا لم يستكمل سبعة شهور في بطن أمه حتى ظن الجميع انه ميت لامحالة، ولكن الله أخلف ظنهم فعاش ليظهر نبوغه متأخرا بعد التحاقه بجامعة (كامبردج)، حيث كان يتوصل الى حل المسائل الحسابية والهندسية في ثوان بينما يستغرق الآخرون ساعات، ولقد أذهل نبوغه اساتذة الجامعة واتهموه مرة بأنه سرق اسئلة امتحانات علم الميكانيكا فطلب منهم إعداد اي اسئلة يريدونها، وعلى الرغم من صعوبة الاسئلة التي أعدوها فقد أجاب عليها في أقل من ثلاث دقائق فاعتذر له عميد الجامعة وأساتذتها واعتبروا عقله ظاهرة شاذة بين العقول البشرية، وأدت تفاحة سقطت فوق رأسه فألمته الى اكتشافه قوانين الجاذبية الارضية وجاذبية القمر التي تسبب المد والجزر على الارض.

القاطرة البخارية : المخترع الاسكتلندي (جيمس وات) الذي كان مريضا في البيت يعاني من الزكام الشديد، أغلق الابواب والنوافذ عليه حتى لايتعرض لبرودة الرياح التي كانت تعصف في الخارج، وكان ينهض من حين الى آخر يحاول ان يفهم ما الذي يجعل الهواء يصفر اذا دخل من ثقب الباب، وما الذي يجعله يسكت اذا هو سد هذا الثقب بأصبعه. وعندما بدأ يحضّر لنفسه كوبا من الشاي طلبا للدفء أدهشه شيء آخر، فقد وجد براد الشاي الذي يغلي به الماء يهتز ويكاد يقفز من فوق النار، وبينما كان البراد يهتز كان البخار يخرج من الناحية الاخرى، وعندما حاول سد الفتحة التي يخرج منها البخار سقط البراد من فوق النار، مئات وآلاف وملايين الاشخاص مروا بالموقف نفسه وحدث لهم ما حدث لجيمس وات وهم يحضرون لأنفسهم أو لغيرهم أكوابا من الشاي، ولكن أحدا منهم لم يحاول - كما فعل وات - ان يسخّر هذا الموقف ليصل الى اختراع عظيم أحدث ثورة في عالم النقل والمواصلات والصناعة، إنها القاطرة البخارية التي انبثقت فكرتها من براد الشاي لتصل الى ما وصلت اليه صناعة القطارات اليوم.

اكتشاف مذهل ينمي الذكاء الخارق لدى البشر

اثبتت دراسة مذهلة المقولة القديمة الشائعة بأننا لا نستخدم إلا عشر طاقة مخنا، ومهدت الطريق الى كيفية استغلال قوة المخ الخامدة الى اقصى درجة. فأول مؤشر على ذلك جاء عندما قامت ماريان دايموند العالمة بجامعة كاليفورنيا بفحص انسجة مأخوذة من مخ ألبرت آينشتاين كانت محفوظة للدراسة العلمية بعد وفاة عالم الفيزياء الشهير.واكتشفت دايموند ان مخ آينشتاين احتوى على كمية من الخلايا الدبقية تفوق ما هو موجود لدى اي انسان عادي.وفي السابق كان يعتقد ان الخلايا العصبية فقط هي التي تلعب دورا في عملية التفكير، ولكن الفكرة التي ترسخت الان هي ان القدرة الذهنية الفائقة لآينشتاين قد تكون راجعة للكمية الاكبر من الخلايا الدبقية الموجودة في رأسه.

وبإجراء مزيد من الأبحاث تكشف ان خلايا دبقية في المخ البشري موجودة بكمية تزيد بمعدل تسعة اضعاف على الخلايا العصبية ما يرجح وجود منجم ذهب من الطاقة غير المستغلة بانتظار ان يتم اطلاقها. ولكن من خلال دراسة كيف ومتى ولماذا تشع فراشات النار اكتشف الباحثون ان الخلايا الدبقية لها حياة خاصة بها وانها بصفة دائمة تجري محادثات احداها مع الاخرى عن طريق عناصر كيميائية خاصة تفرزها.

ووجد الباحثون ان التواصل بين الخلايا الدبقية يلعب دورا حيويا مهماً في تطور ونمو الذكاء من مرحلة الطفولة فصاعدا ولكن بطريقة معينة: فالخلايا العصبية تتواصل إحداها مع الاخرى فقط عندما تكون المسافة بينهما قريبة ما يحد من مجال المخيلة والافكار.

لكن الخلايا الدبقية بالمقابل يمكن ان تتفاعل إحداها مع الاخرى عبر مسافات بعيدة في المخ ما يخلق مجالا اوسع بكثير للخيال والتفكير الابداعي.

وهذا النوع من الابداع هو ما ساعد آينشتاين على اكتشاف نظرية النسبية التي احدثت ثورة وقلبت عالمي علماء الفيزياء والفلك على رأسه. والعلماء الآن بصدد اجراء بحوث جديدة لاكتشاف كيفية تنشيط الخلايا الدبقية لاقصى درجة ما يسمح لنا باستخدام الموارد الكبيرة التي نحملها في رؤوسنا.

والمثير للاهتمام ان المركب الاساسي في عملية تنشيط الخلايا الدبقية هو الكالسيوم كما يبدو وهو العنصر الغذائي الرخيص والمتوفر بكثرة ويعلق عالم الاحياء العصبية داميان بارتردج ان هذا الاكتشاف يمهد الطريق للتطور البشري بشكل غير محدود.

العبقرية وتنمية القدرات بالإبداع

يمكن ملاحظة العبقرية والإبداع في الإنسان منذ الطفولة، ففي بعضهم مواهب وقدرات خاصة ليست موجودة عند البقية، وإن ظهور تلك الخصائص يسبب تقدم البشرية ورقيّها، حيث النوابغ والعظماء لا يقاسون مع سائر الأفراد من حيث إدراك الحقائق العلمية، والذكاء الخارق، وإن الترقيات التي نالت البشرية في الحياة المادية مدينة إلى مواهب هؤلاء الرجال البارزين فهم الذين أدركوا الحقائق العلمية بفضل مواهبهم الخاصة، وقادوا ركب الإنسانية إلى الأمام، ونلاحظ الإنسانية على أنها مجموعة حية في حالة دائمة من التغير والذكاء، ونعلم أن تطورات هذه المجموعة تبدأ بواسطة أناس نادرين ومتفردين في الغالب.

وعلى أية حال فإن التعريف المعتمد للعبقرية مع اختلافات كثيرة فيه هو: العبقرية: قوة فكرية فطرية من نمط رفيع كتلك التي تعزى إلى من يعتبرون أعظم المشتغلين في أي فرع من فروع الفن أو التأمل أو التطبيق، طاقة فطرية وغير عادية على الإبداع التخيلي أو الفكر الأصيل أو الابتكار أو الاكتشاف.

والشخصية شديدة الرسوخ في ظاهرتي الإبداع والقيادة، وللذكاء بشكل خاص فائدته التنبؤية واختيار المرء لمجال سلوكي معين، وكذلك كمية الإنجاز في هذا المجال السلوكي، يتحددان من خلال القدرة العقلية، وهناك متغيرات وثيقا العلاقة بالذكاء لهما قيمتهما التنبؤية أيضاً، فتنوع الاهتمامات يرتبط بشكل عام بالشهرة المتحققة لدى القادة، بينما ترتبط الحنكة العقلية أو على الأقل القدرة التحول السريع من الجمود العقائدي إلى المرونة العملية وفقاً للحق، بالنجاح طويل الأمد عند الثوار، وتعزز هذه القوى العقلية بمجموعة من القوى الدافعية، فالتوق للإنجاز هو أحد الملامح المميزة للعباقرة، كما أنه قد يتصل اتصالاً وثيقاً بالنمو والرخاء الاقتصاديين، ورغم أن النزعة الأخلاقية ترتبط بالذكاء ومهارات القيادة لدى حاكم دولة ما، إلا أن من السهل على القائد أن يحتل موقعاً دائماً في التاريخ سواء أكان خيراً أم شريراً.

والفكرة الجوهرية هي أن الاختراعات والإبداعات تخضع للصدفة أكثر من أي شيء آخر، والتاريخ يقول (الصدفة تخلق الموقف والعبقري يستغله..)

ولكن الذي يبدو أن وجود اكتشافات واختراعات عديدة مستقلة ومتزامنة يثبت أن التقدم العلمي ليس وليد الصدفة إلى هذا الحد. ومع ذلك استغلال الفرص أمر مهم لأن إضاعتها غصة ، والعبقرية متفاوتة وقابلة للزيادة والصقل وهذا ما يجب أن نستغله، فالأطفال يجب أن يخضعوا منذ الصغر إلى رقابة تربوية صحيحة، وتهيأ لهم ظروف وبيئة صالحة، وأن البيئة الوحيدة التي تستطيع أن تنمي القابليات الخاصة وتستغل الطاقات الكامنة وتخرجها إلى حيز الوجود هي الأسرة.

و بدلاً من أن يشبه الآلة التي تنتج في مجموعات يجب على الإنسان بعكس ذلك. أن يؤكد وحدانيته ولكي نعيد تكوين الشخصية يجب أن نحطم هيكل المدرسة والمصنع والمكتب.. إننا نعلم أنه من المستحيل أن ننشئ أفراداً بالجملة، وأنه لا يمكن اعتبار المدرسة بديلاً عن التعليم الفردي... إن المدرسين غالباً ما يؤدون

عملهم التهذيبي كما يجب، ولكن النشاط العاطفي والجمالي والديني يحتاج أيضاً إلى أن ينمي، فيجب أن يدرك الوالدان بوضوح أن دورهما حيوي ويجب أن يُعدّا لتأديته..

حينما اعترف المجتمع العصري بالشخصية كان عليه أن يقبل عدم مساواتها، فكل فرد يجب أن يُستخدم تبعاً لصفاته الخاصة واهتماماته الفريدة . وفي محاولتنا توطيد المساواة بين الناس ألغينا الصفات الفردية الخاصة التي كانت أكثر نفعاً، إذ أن السعادة تتوقف على ملاءمة الفرد ملائمة تامة لطبيعة العمل الذي يؤديه . ولذلك يجب أن ينوّع البشر بدلاً من أن يصبحوا جميعاً على نسق واحد، كذلك يجب أن تستبدل هذه الاختلافات التي حفظتها وهوّلتها طريقة التعليم وعادات الحياة.

بين العبقرية والجنون

منذ قديم الأزمان كان الناس يعتقدون بأن هناك علاقة بين العبقرية والجنون. وكانوا دائما يتحدثون عن العبقري بشيء من التهيب والوجل، فهو شخص غريب الأطوار معقد الشخصية يختلف عن جميع البشر، والواقع أننا إذا ما استعرضنا أسماء كبارا لكتاب وجدنا أن معظمهم _ان لم يكن كلهم.كانوا يتميزون بتركيبة نفسية خاصة وغير طبيعية بل إن بعضهم دخل في مرحلة الجنون الكامل. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: هولدرلين ونيتشه، وجيرار دونيرفال، وانطو نين ارتو، وفان جوخ، وغي أو دو موباسان، وفيرجينيا وولف، وشومان، والتوسير الخ..

وقد طرح أحدهم على الكاتب الفرنسي اندريه موروا هذا السؤال: هل جميع الروائيين مجانين أو عصابيون؟ فأجاب الكاتب الكبير: لا الأصح أن نقول أنهم كانوا سيصيرون جميعهم عصابيين لولا أنهم أصبحوا روائيين.. فالعصاب يا سيدي، هو الذي يصنع الفنان، والفن هو الذي يشفيه . وكان جوابا مقنعا ورائعا.

فالواقع انه لولا العصاب لما كرس أشخاص من أمثال بلزاك أو ديستويفسكي أو فلوبير أنفسهم لفن الكتابة. ولولا أنهم نجحوا في هذا الفن وقدموا لنا روايات خالدة لما نجوا هم أنفسهم من مرض العصاب. هذه هي الدائرة المغلقة التي تجمع بين الابداع والمرض أو بين العبقرية والجنون. ولكن السؤال المطروح هو: لماذا يسقط في ليل الجنون حتى أولئك الذين أبدعوا ابداعا كبيرا؟ لماذا لم يحمهم الابداع _ أو الانتاج الابداعي _ من الجنون؟ فلا أحد يشك في أن نيتشه من كبار الفلاسفة، ومع ذلك فقد جن بشكل كامل في أواخر حياته وظل مجنونا لمدة أحد عشر عاما حتى مات سنة ١٩٠٠، ولا أحد يشك في أن هولدرلين هو واحد من أهم الشعراء في العالم، ومع ذلك فقد أمضى نصف عمره تقريبا في بحر الجنون. والواقع انه تصعب الاجابة عن هذا السؤال، ولكن ربما التقينا به في مرحلة لاحقة، مهما يكن من أمر فإننا نظل متفقين مع اندريه موروا على القول بأن الفن يشفي من العصاب بشكل عام، ولولاه لجن معظم أولئك الكبار الذين سجلت أسماؤهم على صفحات التاريخ، ويكفي أن نستعرض سير حياتهم التي كتبت بعد وفاتهم لكي نتأكد من ذلك، وتكمن عظمتهم بالضبط في أنهم تجاوزوا عصابهم أو عقدتهم النفسية المتأصلة عن طريق الابداع. فلا ريب في أن الابداع يحرر من العقد ويعطي الشخصية ثقة بنفسها.

لماذا أتحدث عن هذا الموضوع الآن؟ ولماذا اخترته للكتابة في هذه الدراسة المطولة، وكان لهذا عدة أسباب:

أولها أنه كان يعتمل في نفسي منذ زمن طويل. وثانيها انه يمثل نوعا من المحرمات فيما يخص الثقافة العربية. فلا أحد من الكتاب العرب يجرؤ على الاعتراف بأنه مصاب بعقدة نفسية معينة أو بعصاب معين. نقول ذلك على الرغم من أن هذا الأمر أصبح شائعا ومعترفا به لدى الكتاب الغربيين ولم يعد يثير أية حساسية .

والواقع أن الجنون بالمعنى الذي نقصده، أي الجنون الابداعي، ليس مخيفا الى مثل هذا الحد بل ربما كان محببا وقريبا الى النفس. وهو على أي حال لا يؤذي أحدا، اللهم الا صاحبه . وكان يمكن أن استخدم محله كلمة التوتر الداخلي أو المعاناة أو الاضطراب النفسي الذي يدفع الى الابداع ويحل عن طريق الابداع. فالشخص المتوازن ، أي التافه والغبي لا يمكنه أن يشعر بأي حاجة للابداع .

في عام ١٨٥٩ كتب 'مورو دوتور' _ وهو طبيب نفساني. دراسة تحليلية لشخصية الشاعر جيرار دونرفال الذي كان قد انتحر قبل وقت قريب. وأثبت فيها أنه كان مصابا بتهييج هومي دوري، هو السبب في ابداعه. فحالة الابداع هي حالة هوسية يبلغ فيها التهيج حده الأقصى. ولو أن الشعراء والكتاب العرب تحدثوا لنا عن حالتهم النفسية أثناء عملية الابداع لقدموا لنا اضاءات مهمة عن العلاقة بين التوتر والابداع. ولكنهم لا يتجرأ ون على ذلك خشية أن ينعتوا بالجنون !..

نعم إن هناك علاقة بين التوتر النفسي والابداع، ولكن ليس كل عبقري مجنونا، وليس كل مجنون عبقريا، فالعلاقة بينهما أكثر تعقيدا مما نظن. وهذا ما سنتعرض له تفصيلا فيما يلي:

يقول بعضهم بأن هناك نوعين من العبقريات. فهناك العبقرية الصاعقة، أي التي تنفجر انفجارا عفويا كالشلالات والينابيع، أو حتى كالزلازل والبراكين . وهناك العبقرية الهادئة، المتدرجة التي تصنع نفسها عن طريق الصبر والمثابرة والعمل المتواصل. ولكن العبقري في جميع حالاته يكون عادة كائنا لا اجتماعيا، يميل الى العزلة والوحدة والهامشية.

لكن هناك عبقريات من نوع آخر، عبقريات بطينة تتطلب وقتا طويلا وصبرا قبل أن تنضج وتتفتح. والواقع أن معظم العباقرة يتميزون بهذه الخاصية: الرغبة الكبيرة في العطاء والمثابرة على نفس الخط لفترة طويلة من الزمن. انهم لا ييأسون

بسهولة ولا يتراجعون عن الهدف الذي وضعوه نصب أعينهم. يقول الفريد دوموسيه بهذا الصدد ما يلي: لا توجد عبقرية حقيقية بدون صبر.

وبالتالي فإن العبقرية لاتتشكل بين عشية وضحاها، وانما هي خاتمة لمسار طويل عريض. ويرى بودلير أن الالهام لا ينزل علينا فجأة من السماء وانما هو بالاحرى نتيجة للتدريب اليومي المستمر والمتواصل والدؤوب. نقول ذلك ونحن نعلم مدى القلق الذي يشعر به الكاتب أمام الصفحة البيضاء فهو لايستطيع أن يملأها الا بشق الأنفس، وأحيانا لا يستطيع أن يكتب جملة واحدة. وقد عرف أحد الكتاب الانجليز العبقرية قائلا بأنها نتيجة التعب والجهد بنسبة ٩٩٪ ونتيجة الالهام بنسبة ١٪ فقط ! وهذا دليل على أن الجهد هو الأساس، وأما ما تبقى فيجيء بعد بذل الجهد لا قبله. مهما يكن من أمر فيبدو أن العناد هو أحدى الصفات الأساسية التي يتميز بها العباقرة. فالناس العاديون سرعان ما يملون بعد فترة من الزمن إذا لم يصلوا الى نتيجة. وأما العباقرة فيظلون ممرين على نفس الخط رغم كل الخيبات والعقبات حتى يصلوا الى نتيجة في نهاية المطاف. وطالما تحدث الناس عن أسطورة بلزاك وقدرته الرهيبة على العمل خصوصا ليلا. فقد كان يغلق النوافذ عليه بدءا من الساعة العاشرة مساء ثم يحضر"طنجرة" كاملة من القهوة ويبتديء الكتابة حتى الصباح دون توقف.

وهكذا كان يشتغل خمس عشرة ساعة يوميا، بعد أن يبتلع عشرات الفناجين من القهوة. ولولا ذلك لما استطاع كتابة كل هذا الانتاج الضخم المتمثل بالكوميديا البشرية، وهو لم يعش أكثر من خمسين عاما ! نعم إن العبقرية بحاجة الى جهد جهيد، ولا تنزل علينا كهدية من السماء. يقول بلز ان في أحدى رسائله ال حبيبة عمره مدام فانسكا: ان حياتي تتلخص بخمس عشرة ساعة من العمل، وبالمحن والعذاب، وهموم المؤلف، وصقل العبارات وتصحيحها.

ولكن هذا التدريب اليومي المستمر والدؤوب لا يفسر لنا وحده سبب العبقرية. فهناك دارسون أكاديميون يشتغلون ساعات وساعات يوميا دون أن يتوصلوا الى أكثر هن مرتبة دارس جيد أو جامع مفيد للمعلومات، واذن فهناك سبب آخر للعبقرية غير الجهد والتعب: انه الموهبة أو شرارة الابداع. فهناك كتاب يمتلكونها، وآخرون لا يمتلكونها. ولذلك نسمعهم يقولون: هذا الكاتب موهوب،وهذا الكاتب عنده شيء، الخ... اذن فالعبقرية هي نتاج الموهبة والجهد في آن معا، وقد لا يكون حظ الموهبة فقط ١٪ كما قال الكاتب الانجليزي، وانما ٥٠٪.

وكان فلوبير يجسد في مجال الأدب، المثال الأعلى للمثابرة والمواظبة وبذل الجهد والتعب،. وكان يجلس وراء طاولته من عشر الى اثنتي عشرة ساعة يوميا لكي يستطيع أن يكتب رواية واحده كل أربع أو خمس سنوات. ولذلك لم يكتب كثيرا: خمس أو ست روايات طيلة حياته كلها ما عدا "مدام بوفاري" رائعته الخالدة. انه يشبه المقلين في الشعر العربي القديم اللذين اشتهروا بقصيدة واحدة أو عدة قصائد فقط. انه يشبه عبيد الشعر الذين لا ينفكون يصقلونه ويعيدون النظر فيه أياما وشهورا وربما سنوات. وطالما تحدث فلوبير عن عذاب الكتابة وكيف أنه يقضي الساعات الطويلة. وأحيانا بضعة أيام، لكي يجد الجملة المناسبة أو حتى الكلمة المناسبة. وكان يلعن نفسه أثناء ذلك ويلمن الكتابة والأدب وكل شيء .

هناك خاصية أخرى يتميز بها العباقرة هي حب الوحدة والعزلة والاستقلالية الشخصية. يكتب أحدهم: لقد قالوا عن العبقري بأنه يشبه المجنون. بمعنى أنه يولد ويموت وحيدا. انه شخص بارد، فاقد الحساسية لا علاقة له بالعواطف العائلية والتقاليد الاجتماعية. ولكن هذه مبالغة بالطبع. والواقع ان العباقرة يحبون العزلة من أجل التفرغ لابداعهم وانتاجهم، فلا تستطيع أن تبدع وأنت في زحمة الشارع أو في وسط البشر، ومن المعروف أن العلاقات العامة والاستقبالات والحفلات تأخذ وقتا كثيرا ولا تسمح للمفكر بأن يتفرغ لنفسه وأفكاره وتأملاته. ولذلك اشتهر المفكرون بحب الوحدة والحرص عليها. نضرب عليهم مثلا شهيرا ديكارت

الذي غادر بلاده فرنسا هربا من المتطفلين والثرثارين الذين كانوا يلاحقونه باستمرار. وكان يشعر بسعادة كبيرة إذ يسكن في حي لا أحد يعرفه فيه، ويمشي في الشارع ولا أحد يتنبه اليه. فالشهرة أيضا مزعجة وينبغي أن يحمي الانسان نفسه منها.

و يتميز العبقري بالهامشية والعصيان وعدم الخضوع للتقاليد والأعراف السائدة مثله في ذلك مثل المجنون، ولكن الفرق الوحيد بينه وبين المجنون هو انه لا يتهكها بشكل مجاني أو مبتذل أو غير واع. يضاف الى ذلك أن للعباقرة عاداتهم التي يلتزمون بها وتصبح جزءا لا يتجزأ منهم. قلنا سابقا بأن بلزاك كان يسهر في الليل وينام في النهار. وهكذا كتب معظم مؤلفاته ان لم يكن كلها. وهذه الطريقة في الحياة تعتبر جنونا بالنسبة للانسان العادي. فالطبيعي أن تفعل العكس أي أن تنام في الليل وتشتغل في النهار.

ولكن العبقري ليس انسانا طبيعيا. انه مهووس بمشروعه الى درجة المرض ومستعد لأن يضحي بكل شيء من أجله. وقد لاحظنا من خلال قراءة سير العباقرة أن معظمهم لا ينجبون الأطفال ولا يكرسون وقتهم لتربية عائلة. فمؤلفاتهم هي أطفالهم، وهم حريصون عليها مثل حرص الرجل العادي على طفله. فديكارت لم يتزوج، وكذلك الأمر بالنسبة لكانط، وسبينوزا، ونيتشه، وسارتر، وميشيل فوكو،الخ.. بالطبع فهناك استثناءات (هيجل مثلا). ولكن عموما فإن العبقري يكرس حياته لشيء واحد فقط: هو انتاجه وابداعه.

يضاف الى ذلك أن عادات العباقرة عجيبة وغريبة وتختلف عن عادات البشر. فمثلا ينسون أحيانا أن يأكلوا ويشربوا في في فترات الابداع، وينسحبوا من الحياة اليومية كليا لكي يضعوا انتاجهم مثلما تنسحب المرأة الحامل لكي تضع طفلها. وهكذا عاش مارسيل بروسة ومات عام ١٩٢٢ ضمن ظروف بائسة في غرفة حقيرة لا تحتوي الا على سرير وكرسي وثلاث طاولات ! واما "فرانز كافكا" فكان أكثر شذوذا وغرابة أطوار. كان يفرض على نفسه عادات صحية عجيبة

خوفا من المرض. وكان هوسه اليومي هذا ذو علاقة بهوسه الابداعي. كان يفرض على نفسه مثلا الاستحمام بالماء البارد جدا والمثلج، ويمتنع عن تناول الكثير من الأطعمة اللذيذة ويعاقب جسده معاقبة صارمة. وكل ذلك بسبب العصاب الهوسي الذي يلاحقه والذي أدى الى تفتح عبقريته على الرغم من كل شيء. وهنا نلمس لمس اليد نقطة التواصل بين العصاب النفسي، وبين العبقرية. يضاف ال ذلك أن العباقرة متطرفون في عاداتهم على عكس الناس العاديين أو المتوازنين. فمثلا كان فولتير يشرب خمسين فنجان قهوة في اليوم ! وقل الأمر ذاته عن فلوبير وبلزاك. وذلك لأن القهوة تنبه الأعصاب وتجعلها متحفزة للابداع. وأما بودلير فقد تجاوزها الى ما هو أخطر: شرب الكحول بشكل مسرف وتعاطي المخدرات. وقد دفعت صحتهم ثمن ذلك غاليا... ولكن في سبيل الابداع _ كل شيء رخيص.

والآن ماذا عن القلق؟ في الواقع أن العباقرة شخصيات قلقة حساسة الى درجة المرض والتطرف الأقصى. ولو سمعنا كل حكاياتهم وقصصهم العجيبة الغريبة لحمدنا الله على أننا لسنا عباقرة ! لنضرب على ذلك مثلا شوبنهاور. فقد كان مصابا بجنون العظمة وعقدة الاضطهاد في آن معا. وكان يعتقد بأنه ملاحق باستمرار دون أن يلاحقه أحد.. ولم يكن أحد يستطيع أن ينزع من رأسه تلك الفكرة التي تقول بأن هناك مؤامرة كونية تحاك ضده من أجل خنق عبقريته أو القضاء على ابداعه الفلسفي. الا يقترب ذلك من الجنون؟ أين تقع الحدود الفاصلة بين العقل والجنون؟ .

قلنا إذن بأن العبقري يشترك مع المجنون (أو مع المريض العقلي) بصفة أساسية واحدة: هي التأزم الداخلي، ولكن الفرق بينهما هو أن أزمة العبقري تنحل عن طريق الابداع، في حين أن أزمة المجنون تبدو مجانية ولا تؤدي الا الى الهذيان الفارغ. هذا يعني أنه لولا ابداعه الخارق لكان العبقري قد أصبح مجنونا.

فالأبداع هو الذي يحرر الشخصية من أزمتها الداخلية أو من تناقضها الحاد الذي يبدو عصيا على التجاوز في الحالات العادية. بهذا المعنى فإن الابداع هو انفجار خارج من الأعماق. انه ولادة تجيء بعد مخاض عنيف وخطر. وهكذا يستعيد المبدع توازنه لفترة من الزمن، وذلك قبل أن يدخل في دورة تأزمية جديدة تنحل أيضا عن طريق ابداع جديد وهكذا دواليك.. نقول ذلك وبخاصة إذا ما لقي الابداع ترحيبا في وقته من قبل شريحة واسعة من الناس. وهكذا يتوازن العبقري على اعتراف الناس واعجابهم به.، ولولا هذا الاعتراف لربما فقد توازنه وغطس في بحر الجنون. فاعتراف الآخرين بك يعطيك ثقة بالنفس ويثبت أقدامك ويزيل الكابوس النفسي عن صدرك. والواقع أن تعريف العبقرية هو هذا: اعتراف العدد الأكبر من الناس بالمبدع، وديمومة هذا الاعتراف على مدار الزمن والقرون. هذا هو الشي ء الذي يعطي قيمة لا تقدر بثمن للوحات ميكيل انجيلو،أو فان جوخ، أو لمسرحيات شكسبير، أو لروايات بلزاك وديستويفسكي، أو لكتب ديكارت، وكانط وهيجل في مجال الفلسفة، الخ.

هكذا تولد العبقرية

انها كالنور الذي ينبثق من رحم الظلام، أو كالعقل الذي ينهض على أنقاض الجنون. والعلامة الأساسية التي لا تخطي، على العبقرية هو الاعتراف الكامل والكوني والدائم بها. فلا أحد يشك في عبقرية شكسبير، أو المتنبي أو المعري أو بودلير أو نيتشه أو هيجل.. وكلما مرت الأزمان على انتاجهم عتق ونضج كالخمرة المعتقة وأصبح أكثر أهمية وامتلاء بالمعاني والدلالات. لقد أثبت الطب النفسي الحديث بعد أن أجرى دراسات تجريبية عديدة أن العبقري لايتميز بتركيبة نفسية خاصة بقدر ما يتميز بتشغيل خاص لهذه التركيبة النفسية. فهو انسان مثله مثل بقية البشر. ولكن استعداده النفسي مختلف،. فهو يتميز مثلا بطاقة هائلة عل الحركة والابداع قياسا ال الانسان العادي. كما أنه يتميز بالاختلاف وحب الخروج على المألوف. فالامتثالي الخاضع للعادات والتقاليد السائدة في المجتمع لا

يمكن أن يكون عبقريا. لأن أول سمة من سمات العبقرية هي الشذوذ عن المألوف، ولذلك فإن العباقرة يصدمون الناس في البداية ويلاقون صعوبات جمة من قبل وسطهم والمحيط السائد. ثم يمني وقت طويل قبل أن يتم الاعتراف بهم، واحيانا لا يعترف بهم الا بعد موتهم. وحده العبقري يعرف قيمته منذ البداية، ولكنه لا يستطيع اقناع الآخرين بها فورا بمن فيهم أسرته الشخصية. ولذلك يعاني معاناة جمة ويصاب بالاحباط في لحظات كثيرة، ويحاول التراجع عن الأمر أو الاستسلام، ولكن هناك قوة داخلية فيه أي قوة سرية، تدفعه لأن يستمر، لأن يواظب عل فسيرته. ولذلك قلنا بأن من صفات العبقري الصبر والمواظبة لفترة طويلة من الزمن. انه عنيد فعلا، ولا يتراجع قبل أن يتواصل الى تنفيذ المهمة التي خلق من أجلها. لذلك انه ينبغي أن نعتقد بأن العبقري يعتبر نفسه محملا برسالة أو مسؤولا عن تنفيذ مهمة عليا تتجاوزه وهو مستعد لأنه يضحي بحياته من أجلها، ومن أجلها وحدها.

من هنا تجيء سر قوته ومقدرته على تجاوز العقبات والحواجز التي يصطدم بها في طريقه، والتي يضعها الآخرون في طريقه، فالعبقري ما إن يكتشف الآخرون نواياه الحقيقية حتى يتألبوا عليه ويحاولوا منعه من تحقيق مهمته. العبقري مهدد باستمرار خصوصا في مراحله الأول، والعبقرية خطر على صاحبها. ويصل هذا الخطر أحيانا الى مرحلة التهديد بالتصفية الجسدية. لماذا كل هذا الخطر على العبقري؟ لأنه ليس من الطبيعي أن تكون عبقريا، وإنما الطبيعي أن تكون عاديا مثلك مثل بقية البشر. ولذا فما إن يشعر الناس بأنك عبقري، أو تحمل بذرة العبقرية في داخلك، حتى يعترضوا طريقك ويحاولوا الايقاع بك بشتى الأسباب. فالحسا قاتل أحيانا. وأحيانا يجيء من قبل عباقرة سابقين لا يريدون أن تتفتح أي موهبة بعدهم. وتروي الأسطورة أن أم كلثوم قد ساهمت في القضاء على أسمهان لأنها غارت منها وخافت أن تنافسها بعد أن سمعت صوتها وعرفت أنها عبقرية. وسواء كانت هذه الحكاية صحيحة أم لا فإنها تدل على شي ء ما.

وتروي الروايات أن شعراء كبارا حاولوا القضاء على بعض المواهب الجديدة أو الصاعدة لأنهم أحسوا بأنها تشكل خطرا على امجادهم.. نعم ان العبقري يدخل في الدائرة الحمراء للخطر ما إن يشعر بعضهم بأنه قد يصبح عبقريا ويحل محلهم. ولكن هناك خطرا أخر يهدد العبقري كما ألمحنا الى ذلك أكثر من مرة الا وهو: الجنون أو التوتر العقلي الشديد الهيجان. وقد أثبتت أخر دراسة احصائية أجريت مؤخرا على هذا الموضوع انه نادرا ما يخلو عبقري ما من امارات الجنون أو التوتر النفسي الحاد. وقد قام بهذه الدراسة الباحث فيليكس بوست عام ١٩٩٤، أي انها حديثة العهد جدا، وشملت ٢٩١ شخصية تنتمي الى عالم السياسة والفلسفة والعلم والفن والموسيقى والشعر والأدب.. وهي شخصيات عبقرية ظهرت في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين. وتبين بعد إجراء هذه الدراسة أن هؤلاء العباقرة يتميزون بصفات غير طبيعية. فهناك نسبة ٥٠٪ منهم يتميزون باضطرابات نفسية حادة جدا، بل وتشلهم عن الابداع في بعض فترات العمر. وترتفع هذه النبة لدى الفلاسفة فتصل ال ٦٠٪، ولكنها أرفع ما تكون لدى الأدبا، والشعراء خصوصا حيث تصل الى ٧٠٪. ثم تنخفض لدى الرسامين والموسيقيين ورجال السياسة (حوالي الـ ٣٠٪) ولا نستطيع أن نحصي عدد الشعراء والروائيين الذين أصيبوا بالجنون أو المرض العقلي بشكل جزئي أو كلي، مؤقت أو دائم، ولكن هذا لا يلغي ابداعهم أو عظمتهم و عبقريتهم. فلا أحد يستطيع أن ينكر عظمة شعر جيرار دونرفال لمجرد أنه جن أو انتحر، ولا أحد يشك بعبقرية غي دوموباسان لأنه مات في المصح العقلي بعد أن انهارت قواه النفسية. ولا أحد يستطيع أن يقول بأن نيتشه ليس فيلسوفا كبيرا لمجرد أنه أمضى سنواته العشر الأخيرة في غيبوبة الجنون. ولا يوجد روائي في التاريخ أعظم من ديستويفسكي على الرغم من أنه كان مصابا بالصرع.. ويرى فرويد أن الابداع هو تعويض عن نقص ما في الشخصية. وانه لولا هذا النقص لما أصبح المبدع مبدعا. فالانسان المتصالح مع نفسه ومع الواقع الخارجي ليس بحاجة لأن يكون عبقريا...

وأكبر دليل على ذلك فرويد نفسه الذي كان مصابا بالعصاب ولم يشف منه الا بعد أن اكتشف تلك القارة المظلمة والمعتمة والهائلة: أي اللاوعي. فلا ريب في أن الاكتشاف أو الابداع ينقذ العبقري أو يعيد اليه توازنه. يقول الفيلسوف كير كغارد الذي كان معقدا جدا من الناحية النفسية: أدان المرض هو السبب الأساسي لكل اندفاعة ابداعية. وبالابداع أشفي نفسي من اوجاعي وهمومي. بالابداع أسترد الصحة والعافية". والواقع أن هذه الكلمات هي للشاعر "هيني" ولكن كير كفارد استشهد بها، وكذلك فرويد. وكان ويلكه يعترف بأنه لم يكتب قصيدة واحدة الا من خلال العذاب النفسي والقلق. ومن المعلوم أن العقد النفسية الموروثة عن طفولته كانت تلاحقه كالأخطبوط ولا يستطيع منها فكاكا الا عن طريق الابداع. ثم سرعان ما تعود بعد انتهاء عملية الابداع. وهكذا كان يتوازن باستمرار من خلال اللاتوازن. أو قل كان دائما يشعر بأنه على شفا حفرة من الانهيار وانه مهدد بالسقوط في كل لحظة. وكان مضطرا لتأجيل لحظة الجنون الكامل في كل مرة. ومن المعلوم أن رامبو كان يكتب وهو على حافة الجنون، وكان يتقصدا الجنون تقصدا. كان مهووسا بتلك النقطة الغائرة في الأعماق والأقاصي، تلك النقطة التي لا يستطيع أن يصل اليها أي شاعر الا اذا غامر بنفسه واقترب من منطقة الخطر الأعظم. عندئذ كانت تخرج القصائد العبقرية. واعترف سارتر نفسه بأنه لم يتخلص من مرض العصاب الذي كان يلاحقه الا عن طريق الكتابة. فالكتابة تمتص الجنون الداخلي وتساعد على التخلص منه أو تحجيمه على الأقل. نقول ذلك وبخاصة اذا نجحت وأدت الى ابداع حقيقي. والواقع انه لا يوجد فنان حقيقي إلا ويعاني من مرض ما. أو مشكلة معينة. الإبرة التي توخز الكاتب وتدفعه دفعا الى عملية الابداع. وبالتالي فلا ينبغي أن يخاف الكاتب ان" ما كان يعاني من عقدة نفسية معينة أو من جرح داخلي حتى لو استغله الآخرون ضده. فربما كان هذا الجرح كنز" الوحيد. وهو على أي حال يشكل مصدر عبقريته وسر ابداعه.

أنت عبقري إذا أردت

هل أنت موهوب؟

قد تجيب عن هذا السؤال: وكيف أكون موهوباً والناس من حولي لم يعترفوا لي بالنبوغ بعد، ولم يسبق لي أن نبغت في مجال ما من مجالات الحياة؟

مهلاً يا صديقي. إننا نود أن نميز بين الموهبة كعطية مطمورة بداخلك وبين الموهبة كواقع خارج ذاتك وقد خرجت من حيز نفسك إلى المجتمع من حولك. لقد تكون موهوباً بمواهب فذة ونادرة ولكن لم تتح لك الفرصة حتى هذه اللحظة لكي تخرج الكنز المخبوء بداخلك وتترجمه في واقع حياتك إلى كنز حي معترف به من الجميع.

إنك تقول لنفسك أحياناً (إني أستطيع أن أتى بنغمات جديدة مع أني لا أعرف شيئاً عن الموسيقى، ولم يسبق أن قمت بالتلحين).

إننا نقول لك يا صديقي إن أحداً لن يمد يده إليك يظهرك على ما وهبته من مواهب. العكس هو الصحيح. إنك ستجد مقاومة لما قد تبديه من مواهب. وتتبدى تلك المقاومة في الاستخفاف بك، أو في السخرية مما تقوم بعمله أو إنتاجه أو قوله أو كتابته أو عزفه.

إننا نقول لك يا صديقي أيضاً إنه كم من أصحاب مواهب انصرفوا عما بدأوا فيه خوفاً من نقد النقاد أو درءاً لاستهزاء المستهزئين. ولكن القليل من أصحاب المواهب لم يعبأوا بما يقوله الناس عنهم.

ولكن هل الطريق إلى المجد والشهرة قصير؟ إننا نسارع إلى القول بأن هناك نوعين من الشهرة: نوع رخيص وآخر ثمين. والنوع الرخيص من الشهرة يتأتى لبعض الناس بسرعة وبغير إعداد طويل، وهي شهرة هشة تتبخر بسرعة. أما النوع الثمين

من الشهرة فان الطريق المؤدية إليه ليست مفروشة بالورود والرياحين، بل هي مفروشة بالأشواك وهي طريق طويلة.

ونصيحتنا لك يا صديق ألا تعجل الشهرة في الحياة هي هدفك الأسمى. ذلك أن الشهرة من النوع الثاني الثمين تكون ثمرة لجهود طويلة وشاقة. فعليك بالسعي وراء مواهبك بغير أن تلقي بالاً إلى إحراز الشهرة. إن الشهرة سوف تكون من نصيبك بغير أن تسعى في أثرها. اترك الناس يحسون بك بغير أن تلاحقهم وبغير أن تلح عليهم بأن يعترفوا بك وبمواهبك. جرب وجرب بغير يأس أو نكوص. وإذا وجدت أنك تتقدم فيما بدأت فيه فسر دائباً إلى الأمام بغير توقف.

اقض الوقت الطويل في استثمار مواهبك. لا تظن أن العبقرية موهبة فطرية تفرض نفسها على صاحبها بغير أن يبذل جهداً لاستنباطها وإبرازها إلى حيز الوجود. صحيح إن الموهبة أو العبقرية قد تلح على ذهنك، ولكن إلحاحها لا يعني أنها تخرج إلى حيز الوجود بغير جهد أو عرق. اقرأ تاريخ أي عبقري تجده يتلخص في عناصر ثلاثة: الموهبة والوقت والجهد.

لا تجعل مشاغل الحياة تطفئ مواهبك. كم من طبيب كان يمكن أن يخلد اسمه في عداد عباقرة الطب، ولكن انشغاله في عيادته وسعيه للكسب دون ملاحقة مواكب علوم الطب وفنونه قد حكم عليه بأن يقضي حياته في الظل.

إذا كنت صاحب مواهب فلذة، فلابد أن تتفوق إذن ، والتفوق ليس معناه أن تستوعب الموجود من العلم أو التخصص أو المضمار الذي تعمل فيه فحسب، بل معناه أن تتفوق على ذلك الموجود، وأن تمتد بالحضارة ولو خطوة واحدة إلى الأمام. فالعبقري ليس مَن يعيش على غذاء عقلي أعده له غيره، بل هو ذلك الذي يشارك في إعداد وجبات عقلية جديدة بقبل الآخرون على الاغتذاء عليها.

ولكن العبقري لا يبدأ بالإبداع بل ينتهي إليه. انه شخص سريع الامتصاص لما هو موجود بحيث يمتد بعد ذلك إلى آفاق جديدة لم يسبقه أحد إليها ، على أن العبقرية شخص مشارك أيضاً فيما يقرأ وفيما يطلع عليه. انه كالممثل البارع الذي لا يكتفي بقراءة الأدوار التي يقوم بتمثيلها، بل هو يتقمص الشخصيات المعروضة أمامه في تلك الأدوار. فهو لا يردد ما كتب في المسرحية، بل يعيشها بعقله ووجدانه معاً. والعبقري يحيا واقعه وفكره ولكأنه يؤلف مع المؤلف الذي يقرأ له، ويخترع مع المخترع الذي يشاهد اختراعه، ويجرب مع صاحب الكشف العلمي، ويعاني مع الفنان في مرسمه ومع الشاعر في قرض شعره.

وبينما نقول إن العبقرية نادرة، فإننا لا نستطيع أن نقول نفس الشيء بإزاء النبوغ. فكل الناس العاديين يتسنى لهم النبوغ في مجال ما من مجالات الحياة الكثيرة جداً. المهم هو أن يعرفوا المجال الذي يمكن أن يحققوا لأنفسهم النبوغ فيه، ثم يأخذوا في استثمار مواهبهم الاستثمار الصحيح وبالطريقة الصحيحة.

إذن فلتبدأ فوراً يا صديقي بالنهوض والخروج من نطاق التبعية الفكرية إلى رحابة الابتكار. ابتكر ي شيء. هل حاولت مثلاً أن تسجل أفكارك؟ هل حاولت قرض الشعر أو كتابة قصة أو رسم لوحة أو تلحين أغنية تكون أنت مؤلفها وملحنها معاً؟ إننا نهيب بك أن تشق عباب المجهول فربما يكون لك حظ كبير فيه وأنت غافل عن الممكن المطمور في حنايا شخصيتك.

وحتى بالنسبة للعبقرية التي قلنا إنها موقوفة على فئة نادرة من الناس، فان علم النفس الحديث لا يغلق باب العبقرية أمام الأشخاص العاديين.

يقول لنا علم النفس الحديث إن العبقرية لا تظهر في فراغ، بل تظهر في سلوك العبقري، والسلوك نوعان: سلوك المواقف والعلاقات الاجتماعية، وسلوك الفكر والوجدان، فرمسيس الثاني كان عبقرياً بما أظهره من عبقرية حربية، ومصطفى

كامل كان عبقرياً بما أظهره من عبقرية سياسية، وطلعت حرب كان عبقرياً بما أظهره من عبقرية اقتصادية.

وهكذا يظهر من هذه الأمثلة أن العبقرية ليست عبقرية واحدة، بل هي عبقريات كثيرة. ونستطيع أن نقر أن العبقرية لا تتعلق بشخص العبقري، بل هي تتعلق بالعلاقة بين العبقري وبين المجال الذي يعمل فيه. فأنت لا تكون عبقرياً إلا إذا تركت بصمتك على مجال ما من مجالات الحياة. ولقد نقول أكثر من هذا إن عبقريتك لا تتبدى إلا إذا شققت طريقاً جديداً لم يسبقك أحد إليه.

فالعبقرية إذن تتميز أولاً وقبل كل شيء بالابتكار. فاذا كنت شخصية مبتكرة، فأنت إذن عبقري. أما إذا كنت تسير وراء غيرك، أو إذا كنت مقلداً للآخرين في فكرك أو عملك فإنك لا تكون من العبقرية في شيء.

ولكن العبقرية لا تهبط عليك فجأة. إنك لكي تبتكر لابد أن تسير أولاً في ظل غيرك. وبتعبير آخر نقول إن امتصاص خبرات الآخرين أو التفاعل معها ضروري للعبقري. فالتقليد والاستيعاب يسبقان الجديد والمبتكر.

فالعبقري يمر بمرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة التلمذة، والمرحلة الثانية هي مرحلة الأستاذية. ولكن يجب أن نؤكد أن هاتين المرحلتين متداخلتان. فالعبقري وإن كان يمر في مرحلة التلمذة وحدها في طفولته وشبابه، فإن مرحلة الأستاذية التي تتجلى فيها عبقريته تظل متداخلة أو مبطنة بالتلمذة.

فأنت عبقري إذا أردت. ولكن ما تسمعه عن شذوذ العباقرة ليس شرطاً ضرورياً يرتبط بشخصية العبقري. وحذار من الارتماء في أحضان الشذوذ أو الخروج عن المألوف ظناً منك أن الشذوذ أو الخروج عن المألوف يكسبك عبقرية في أنظار الناس. إن عبقرية العبقري لا تقاس بمظهره أو تصرفاته الشخصية، بل تقاس في ضوء ما يخلفه وراءه من فكر أو عمل مبتكر.

خلاصة الكلام: هناك مهمتان أساسيتان يجب على المرء القيام بهما: المهمة الأولى: هي اكتشاف مواهبه المطمورة في شخصيته. والمهمة الثانية، هي عملية توجيه تلك المواهب الوجهة الصحيحة.

ويجب أن نميز بين نوعين أساسيين من المواهب: النوع الأول: المواهب المتعلقة بالابداع الفني. ومن هذه المواهب موهبة التلحين أو موهبة الغناء أو موهبة الرسم. أما النوع الثاني: فهو المواهب الوظيفية التي تتطلب الاستفادة من دراسة علوم مختلفة ومن مواقف عملية كثيرة. ومن هذا النوع موهبة الطيران وموهبة الجراحة في الطب وغيرهما من مواهب وظيفية.

وبالنسبة لمواهب الإبداع الفني فان الشاب يستطيع أن يعتمد على ما يحس به من رغبة. فاذا أحسست بالرغبة في التلحين أو الرسم مثلاً، فاعلم أن لديك موهبة التلحين أو الرسم. ولكن إذا أحسست بالرغبة في أن تصير طياراً أو جراحاً، فهذا لا يضمن لك أن تصير طياراً ممتازاً أو جراحاً يشار إليه بالبنان.

وعلى أية حال فان الرغبة ضرورية في اظهار الموهبة أياً كانت. فيجب أن تحس بشوق أو حنين إلى التعبير عما بداخلك من مواهب. ولكن يجب أن تعلم أن الطريق إلى استغلال مواهبك ليس مفروشاً بالورود. انه طريق طويل وصعب ويحتاج إلى الجهد والعرق.

وإذا أردت أن تتقن فناً من الفنون، فيجب أن تروي شجرة الموهبة بالعلم والخبرة. وهناك فرق بين الجلوس على شاطئ الموهبة، وبين أن تغوص إلى أعماقها. ولكن إذا وجدت أنك تبذل الجهود الكبيرة لخدمة موهبتك بغير أن تجني شيئاً، فعليك بالبحث عن موهبة أخرى في أعماقك.

وهناك فرق بين النجاح في الدراسة وبين النجاح في ممارسة المهنة المتعلقة بتلك الدراسة. لقد تكون لديك موهبة لدراسة علوم كلية الشرطة ولكن ليس لديك موهبة الاشتغال كضابط شرطة. فموهبة الدراسة شيء، وموهبة توظيف ما تدرسه شيء آخر.

وهذا في الواقع جعل علماء النفس يضعون مقاييس للاستعدادات أو المواهب. وهناك بوجه عام مقاييس تقيس المواهب المتعلقة بدراسة فروع العلوم المختلفة، وهناك من جهة أخرى مقاييس تقيس المواهب المتعلقة بممارسة الوظائف المتباينة.

فاذا أردت أن تصير طياراً، فان علماء النفس يقيسون مواهبك في ناحيتين: الناحية الأولى ما يتعلق بموهبتك في دراسة علوم وفنون الطيران. أما الناحية الثانية فهي ما يتعلق بموهبتك في تطبيق تلك العلوم والفنون في أثناء الطيران.

والمهم في جميع الحالات أن تبدأ أنت باكتشاف مواهبك. فلا أحد يستطيع أن يخلق فيك مواهب ليست موجودة لديك.

****

التفكير العبقري

"حتى لو لم تكن عبقرياً ، يمكنك استخدام الاستراتيجيات ذاتها التي استخدمها أرسطو وأنشتاين لتسخير قوى عقلك وتفكيرك الإبداعي لإدارة مستقبلك بشكل أفضل" .

إن الاستراتيجيات الثماني التالية تشجعك للتفكير بشكل فاعل من أجل التوصل إلى حلول للمشاكل . "وهذه الاستراتيجيات شائعة بالنسبة لأساليب تفكير العباقرة المبدعين في مجال العلوم والفنون على مر التاريخ" .

أنظر إلى المشاكل بطرق عديدة ومختلفة وجد جوانب جديدة لم يتطرق إليها أحد (أو لم يعلن عنها أحد !)

لقد رأى ليوناردو ديفنتشي أنك إذا أردت اكتساب المعرفة عن مضمون مشكلة ما، فإنه عليك أن تبدأ من خلال التعلم حول كيفية إعادة هيكلة هذه المشكلة بطرق عديدة ومختلفة . لقد شعر أن الطريقة الأولى في النظر إلى المشكلة ، تكون غير موضوعية بشكل كبير . ففي كثير من الأحيان نجد أن ذات المشكلة تعاد هيكلتها ، وتصبح مشكلة جديدة .

استعمل الصيغ التصويرية !

عندما كان أينشتاين يفكر في حل مشكلة ما ، فقد كان يجد أنه من الضروري أن يصيغ موضوعه بأكبر عدد من الطرق ، بما في ذلك استخدام الرسم البياني . وفي النهاية يقدم حلولاً مصورة دون حاجة لاستخدام أرقام وكلمات لم تلعب دوراً ذا أهمية في عملية التفكير لديه .

أنتج !

الإنتاجية صفة مميزة للعبقري ، لقد سجل توماس أديسون ١٠٩٣ اختراعاً . لقد عمل على تشجيع وضمان استمرار الإنتاجية من خلال تحديد حصص معينة أو عدد معين من الأفكار التي يجب عليه وعلى الفريق الذي يعاونه أن يأتوا بها . في دراسة قام بها (دين كيث سيمونتون) من جامعة كاليفورنيا في ديفيز ، شملت ٢٠٣٦ عالماً عبر التاريخ ، وجد فيها أن أعظم العلماء هم ليسوا الذي ينتجون الأعمال الجيدة فحسب بل الكثير من الأعمال السيئة أيضاً. إن هؤلاء العلماء لم يكونوا يخافون الفشل أو إنتاج أعمال متوسطة الجودة وذلك على طريق الوصول إلى تحقيق الأعمال الممتازة .

اصنع مجموعات جديدة إمزج وأعد تجميع الأفكار ، والصور ، واحصل منها على مجموعات أو تشكيلات مختلفة بغض النظر عن غرابتها أو خروجها عن المألوف .

إن قوانين الوراثة التي يقوم على أساسها علم الجينات الحديث ، جاء بها القس النمساوي (جريغور منديل) ، الذي قام بالجمع ما بين علم الرياضيات وعلم الأحياء للوصول إلى مبادئ وقوانين جديدة في علم الوراثة .

كوّن علاقات وأنشئ روابط بين المواضيع مهما بدت لك غير متشابهة :

فقد أوجد (دافينتشي) علاقة ما بين صوت الجرس وبين صوت الحجر الذي يسقط في الماء . وقد مكنّه ذلك من الربط واستنتاج حقيقة أن الصوت ينتقل على

شكل موجات . وقد قام (سامويل مورس) باختراع محطات المتابعة الخاصة بإشارات التلغراف ، وذلك من خلال ملاحظته لمحطات المتابعة الخاصة بالخيل .

فكر بالمتضادات :

لقد اعتقد الفيزيائي (نيلز بور) أنك إذا درست شيئين متضادين فإن مستوى تفكيرك يرتفع نتيجة لذلك . لقد أدت نظرته للضوء كجزيء وكذلك كموجة إلى توصله إلى مبدأ التكاملية . إن تعليق الفكر (المنطق) قد يسمح لعقلك بأن يخلق شكلاً جديداً .

فكر بشكل مجازي :

لقد اعتبر (أرسطو) أن استعمال المجاز أو الاستعارة هو من علامات العبقرية . كما أنه اعتقد أن الشخص الذي يملك القدرة على الإحساس بأوجه التشابه ما بين حالتين منفصلتين من الكينونة ، وعلى ربطهما ببعضهما ، لا بد أن يكون شخصاً ذا مواهب متميزة .

الاستعداد للفرصة :

كلما حاولنا القيام بشيء ما وفشلنا ، نلجأ إلى القيام بشيء آخر . وهذا هو المبدأ الأول للصدفة الإبداعية . إذ يمكن أن يكون الفشل مُنتجاً بمجرد عدم اعتباره شيء أو نتيجة عقيمة . إذ يجب علينا تحليل العملية ومحتوياتها ومعرفة كيفية تغييرها للوصول إلى نتائج أخرى . وأن لا نطرح السؤال "لماذا فشلت ؟" بل "ما الذي قمت به ؟"

العبقريه واليتم

هل هناك علاقة بين العبقرية واليتيم؟!

إن الشواهد والأبحاث تؤيد وجود مثل هذه العلاقة فقد وجد أن عدداً من العباقرة كان لليتم فضل في إظهار وبروز عبقرياتهم، فالعالم نيوتن توفي والده قبل أن يولد وفقد الموسيقار بيتهوفن أمه عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وعندما وصل إلى الثامنة عشرة من عمره طرد والده بسبب إدمانه للكحول وأصبح بيتهوفن مسؤولاً عن أسرته، كما أصبح الأمبراطور نابليون بونابرت عائلاً لأسرته وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره عندما مات والده، كما فقد الأمبراطور يوليوس قيصر والده وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة تقريباً. وقد وجد في إحدى الدراسات أن النسبة تتراوح ما بين ٢٢٪ إلى ٣١٪ من العباقرة فقدوا أحد والديهم قبل سن الرشد. وفي إحدى الدراسات الخاصة بالمشاهير المعاصرين وجد أن هناك نسبة حوالي ١٨٪ منهم فقدت أباءها وحوالي ١٠٪ فقدت أمهاتها قبل سن الحادية والعشرين. وفي كتاب العبقرية والإبداع والقيادة لمؤلفه دين سايمنتن يذكر أن دراسة قد أجريت على عينة من ٦٩٩فرداً مشهوراً من دول متعددة ويعملون في مجالات مختلفة تعزز فكرة تحفيز اليتيم في نمو العبقرية وازدهارها. فقد تبين أن تكرار اليتم في هذه العينة كان كبيراً، فربع هؤلاء العباقرة فقدوا أحد والديهم وهم لا يتجاوزون العاشرة، وأكثر من ثلثي هؤلاء العباقرة فقدوا أحد والديهم عند عمر الخامسة عشرة، ونصفهم تقريباً فقدوا أحد والديهم عند عمر الحادية والعشرين، وأكثر من ٦٠٪ منهم فقدوا أحد والديهم عند عمر الثلاثين، كما أن حوالي ١٠٪ منهم فقدوا كلا الوالدين عند عمر الحادية والعشرين.

ويبدو أن العبقرية في هذه الدراسة تعود إلى الفجيعة من فقدان أقرب الناس إلى العبقري وهناك من أرجعوا سبب ذلك إلى اختلاف الهوية الجنسية الذي يسببه غياب الأب المنتمي إلى جنس الابن.

وربما يعود جزء من العبقرية إلى الظروف والأحداث الناتجة والمرافقة للفقدان المبكر لأحد الوالدين والتي تدفع الطفل أو المراهق إلى التفوق والإبداع وذلك للتعويض عما هو فيه من ألم وحرمان. أو ربما يحدث ذلك بسبب المعاملة الخاصة التي يتلقاها اليتيم من البيئة الأجتماعية التي تحيط به بالإضافة إلى عدد من الحوافز الأخرى.

ومع ذلك فإن العباقرة كما يقول العالم تيرمان يتصفون إلى جانب الذكاء بصفة المثابرة وبقوة الإرادة ولابد هنا أن نتذكر ما قاله المخترع الأمريكي الشهير توماس أديسون: "إن العبقرية هي ١٪ إلهام و٩٩٪ عرق جبين". ويشير الباحثون إلى وجود عامل مشترك في حياة العباقرة وهو أنهم عادة يوجدون في ظروف مناسبة لإبراز مواهبهم، كما أن التوفيق من الله يهيىء لهم مثل هذه الظروف.

ومن هؤلاء العالم الفيزيائي الشهير اسحاق نيوتن فقد ترك المدرسة وهو في الخامسة عشرة من عمره للاهتمام بمزرعة أمه، ولكن زيارة عمه وهو أحد خريجي جامعة كامبردج فتحت أمامه فرصة الذهاب إلى الجامعة، حيث تلقى الدراسة الأكاديمية التي أتاحت له أكتشاف نظرية الجاذبية الأرضية التي اشتهر بها وغيرها من النظريات والقوانين الفيزيائية.

أما العالم فاراداي والذي ترك المدرسة في سن الثالثة عشرة من عمره فقد عمل أجيراً عند مجلد للكتب وفي أثناء عمله قرأ بطريق الصدفة مقالاً عن الكهرباء في إحدى دوائر المعارف، مما ألهب خياله، وجعله أحد المشاهير في علم الفيزياء وأحد أهم علماء الكهرباء في العالم.

ويبقى أن نذكر أن أحد الباحثين هو بلوندل (J.Blondel. ١٩٨٠) توصل في عام ١٩٨٠إلى أن ٦٠٪ من العباقرة والقادة في العالم المعاصر قد جاءوا من الطبقة الوسطى وليس من الأوساط الغنية أو الفقيرة.

******

الإنسان والعبقرية

"إن تاريخ العالم ليس إلا سيرة الرجال العظماء" (توماس كارلايل)

" الإرادة القوية والتفكير، واكتشاف الذات، ومواصلة السير، وتحمل الضربات القاسية، ومواجهة الألم، والصبر الذي لا ينفد، ومداومة المطالعة في الكتب وتوظيف التجارب الحياتية الأخرى.. كلها عوامل لصناعة العبقرية"، والعبقرية تكمن في خلق الجديد، والقضاء على التبعية والتقليد. وأعلى درجات العبقرية الإبداع، وهي نهايته وليست بدايته، كما يعتقد البعض. والإنسان العبقري يهضم كل شيء حوله من أجل أن يقدم الجديد، ويضيفه للبشرية. والكثير من الناس يخلط بين العبقري والنابغة، فالعبقري: هو الذي يشق طريقًا جديدًا، والنابغة: هو الذي يسلك طريقًا معروفًا بتميز. والذي نحتاجه في هذا الزمن هو العبقرية.

ومصطلح العبقرية قديم حديث. فالعبقرية عند اللغويين المتقدمين :كابن منظور في "لسان العرب" "أن عبقر موضع بالبادية، كثير الجن، يُقال في المثل: كأنهم جن عبقر، وقال ابن الأثير: عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئًا فائقًا غريبًا مما يصعب عمله، أو شيئًا عظيمًا في نفسه نسبوه إليها: فقالوا عبقري .

وعند الزبيدي في "تاج العروس" أن أصل العبقرية صفة لكل ما بولغ في وصفه، وأصله أن عبقر بلد يوشى فيه البسط وغيرها، فنسب كل شيء جيد إلى عبقر .

وعند الفيرزوآبادي صاحب "القاموس المحيط" الكامل من كل شيء، والسَّيد، والذي ليس فوقه شيءٌ، والشديد، وضرب من البسط .

العبقرية في نظر المعاصرين : اختلفت وجهات النظر في مفهوم العبقرية، وهي مجموعة من التعريفات المختلفة، والمتشابهة نسبيًا، والوقوف على تعريف شامل صعب. بحكم التفاوت في الفهم والتحليل. فمنهم من يربطها بالقدرات العقلية المعرفية العالية، ومنهم من يربطها بالإنجاز والإنتاج لكثير من الأعمال التي يُلاحظ تأثيرها على الآخرين، ومنهم يختصر مفهوم العبقرية في خلق الجديد، ومنهم من يقول: إن العبقرية صفة خاصة لناس لديهم ملكة الإدراك تختلف عن غيرهم. ومنهم من يقول: هو الشخص الذي يجد الحلول لأزماته، ويخرج منها بشكل سريع .

ويقول أديسون حين سُئل عن العبقرية: "إنها ١٪ إلهام و ٩٩٪ عرق جبين". وهناك رأي مناقض جذريًا له ولغيره من المفكرين، وهو: إن الإرادة والجد والمثابرة قد لا تحقق النجاح بل كثيرون أولئك الذي أرادوا النجاح، لكن لم يحالفهم الحظ. وكثير من الناس من وصل إلى أعلى المناصب وهو لم يبذل أي مجهود لذلك! ولم يفكر أو يحلم بذلك. وإنما حصلت بسبب وراثة اجتماعية أو ضربة حظ! في رأي الدكتور الاجتماعي على الوردي العراقي. ويرى أن الناجح قد امتلكه الغرور، ونسب كل فضل في نجاحه إلى نفسه، وفي نفس الوقت انتقد الكسالى: الذين يتذرّعون بالحظ، وهم لم يعملوا شيئًا. وقال: إن واقع الحياة أقوى من أية خطة يصفها عقل محدود .

والحقيقة أن الحظ هو نتيجة لمقدمة مسبوقة، بالإرادة والعمل، والإنجاز، والاتجاه بالشكل الصحيح. وقديمًا قيل: الحظ محصلة الترتيب والتخطيط .

العبقرية: أتنال بالوراثة أم بالاجتهاد والكفاح؟

العبقرية: أتنال بالوراثة أم بالاجتهاد والكفاح؟

فالبعض من المفكرين والكتاب يعتقدون وراثية العبقرية، ومن أشهر من ألف في ذلك فرانسس غالتن: "العبقرية الوراثية"، والبعض الآخر يؤكد عدم وراثية

العبقرية، فسقراط له أولاد غير جديرين به، وكان لشيشرون ولد غبي، وفي اعتقادي أن العبقرية غير محصورة بالوراثة دون غيرها .

و العبقرية غير مرتبطة بعمر معين، قد تظهر في الطفولة، وقد تتأخر إلى سن المشيب، ففي الستين ظهر نبوغ الفيلسوف (كانت)، وفي الثمانين كان زهير بن أبي سلمى لا يزال يبدع شعرًا .

اكتشاف الذات : شرط أساسي في تحقيق العبقرية، يقول الله عز وجل: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (الذاريات: ٢١) . وطالما ردد الفيلسوف سقراط هذه العبارة وجعلها شعارًا له وهي: "اعرف نفسك"، ومعرفة الذات هي المنفذ الأول لفهم الذات، والإبداع والعبقرية، وفهم الآخرين الذين من حولنا، وعملية اكتشاف الذات تحتاج إلى اختبارات، ونفس طويل؛ لأن الطريق مليء بالمشاق والإخفاقات المتراكمة التي تحتاج إلى تفتيت، والجهل بالذات جهل بالطبيعة الإنسانية وقوانينها. فالمبدع سوف يعاني من الألم، والألم بوابة للإبداع، إذا وُجّه الألم في مساره. والبعض يظن أن الإعاقة هي المشكلة الجسدية، وفي الحقيقة الإعاقة هي المشكلة الفكرية والسلوكية، وقصة هيلين كيلر التي انتصرت على العمى والصمم والخرس. أبلغ دليل. فالرغبة العارمة هي البوابة الأولى لدخول هذا العالم الذي ليس من السهل اقتحامه بسبب آلامه، والرغبة هي الوسيلة لتحسين مواهبك واكتشافها بشكل أكبر. يقول الفيلسوف سقراط: "ما نحن إلاّ ما نفعله مرارًا وتكرارًا ."

هناك تساؤل يطرح بين المثقفين والكتاب وهو: ما سبب غياب العبقرية في العالم العربي؟ طبعًا الأسباب كثيرة ومتنوعة، ولكن من أشهرها : هو انشغال الإنسان العربي بالبحث عن لقمة العيش. كما يقول أديسون في حوار له .

وكذلك لعدم تكريم وتقدير المبدعين، والناس أصبحت لا تعرف المبدعين إلاّ بعد مماتهم ورحيلهم، وكذلك العقد النفسية والعادات الاجتماعية التي تحتاج إلى

تحرر وغيرها، وهي أكثر من أن تحصر هنا. والوطن العربي الإسلامي يحتفل بعدد كبير من الشباب المتميز والمبدع، لكنهم يحتاجون إلى تصحيح المفاهيم، وإضاءة المبادئ في أذهانهم وواقعهم، وتجنب الأفخاخ الداخلية والخارجية، فمن الأفخاخ الداخلية التركيز على نقاط الضعف، وتجاهل نقاط القوة، وعدم مكافأة الذات على أي إنجاز رائع، والخارجية: التسليم التام لآراء الناس، وخاصة الجهال .

في عام ١٩٩١م احتفل نيلسون مانديلا –الرئيس السابق لجنوب إفريقية– بعيد ميلاده الثمانين وقال في خطابه : "إن خوفنا الأعمق ليس من أننا غير أكفاء؛ ولكن من أننا أقوياء إلى أبعد الحدود. إن ما نخشاه هو ما بداخلنا من نور لا ما بداخلنا من ظلمة ."

كلنا يسأل نفسه: "من أنا حتى أصلح لأكون متميزًا ولامعًا وموهوبًا وفذًا؟ والأجدر أن نسأل أنفسنا: ما الذي لا نصلح لأن نكونه؟ نحن نصلح لكل شيء. إنك خليفة الله في الأرض. وتقليلك من شأن نفسك لا يخدم العالم. فنحن وُلدنا لكي نظهر عظمة الله الكامنة في داخلنا. ليست بداخل بعضنا فقط ولكن بداخلنا جميعًا.

وعندما نسمح لما بداخلنا من نور بأن يشرق، فنحن دون أن ندرك نسمح للآخرين بالقيام بنفس الشيء . وعندما نتحرر من مخاوفنا، فإن وجودنا يحرر الآخرين تلقائيًا. ولا بد من استخدام الحيل التكيفية ، ومحاربة الإخفاق ، وعدم الاستسلام ،والقاعدة تقول: لا محاولات لا مكاسب.. ومن يظن أنه لن يخفق فهو يعيش في عالم السحر والخيال. ومن ذلك نستطيع أن نجعل من الأزمة فرصة .

فعالم العبقرية غير مربوط بزمن معين، أو سن، أو نسل، وإنما يقوم ويتحقق بالكفاح الواضحة أهدافه، وبقوة الإيمان، والاستمرار .. والحياة واحدة؛ فاجعلها مشروعاً يُدوّن في التاريخ !!..

فهل بدأت أخي في شق مسارك؟!

تطوّر العبقريّة العلمية

قد ظهر في إحدى البحوث الحديثة حول الظروف التي سادت حياة المشاهير قبل حصولهم على الشهرة أن حوالي . ٨٢٪ من الأفراد الذين تمت دراستهم قد عايشوا عديداً من الراشدين في وقت مبكر من حياتهم . و أن ٦٨٪ ترعرعوا في ظل وجود بعض الراشدين الذين كانوا يعملون في مجالات يمكن الوصول إلى الشهرة عند الرشد .

أن ٦٣٪ منهم تعرفوا على مشاهير في مرحلة مبكرة من العمر . و تبين في مستوى عمري آخر أن ما يزيد على نصف الحائزين على جائزة نوبل في العلم قد تعلموا على أيدي بعض من سبق لهم الحصول على هذه الجائزة و توحي هذه الحقائق بأن وجود من يقتدي بهم من المبدعين قد يكون أمرا جوهرياً بالنسبة لتطور العبقرية العلمية وهذا التأثير عبر الأجيال قد لا يتطلب دائماً الاتصال الشخصي المباشر بين الأستاذة الناضجين وبين المعجبين الصغار لكن يمكن أيضا قراءة كتب عن سير العلماء اللذين نعجب بهم و لم نعاصرهم سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك و معرفة كيفية نشأة حياتهم وما هي الظروف التي مروا بها و جعلت منهم علماء أفذاذ حيث أن معظم العلماء كما قرأت مروا بظروف أسرية صعبه سواء كانت ضعف الوضع المالي أو اليتم أو تحمل المسئولية منذ الصغر . فالنشأة أو التربية في أزمنة الحيوية العقلية أو الفنية الجمالية قد نفضي إلى التطور الإبداعي.

سحر الدماغ ولغز التفوّق

- هل كان نيتشه وآرتو ونرفال وهولدرلين عباقرة مجانين؟
- هل العبقرية مرض عقلي؟ وما حصة العبقرية التي يخبئها الجنون؟
- الاحرى كم نسبة الجنون المفترضة ليزعم المرء العبقرية الحقة والخالصة؟

الدماغ عضو معقد، وهو تحدٍّ للبيولوجيا حيث لا تزال آليته تعصي فهم العلماء وادراكهم. فبفضل مئات مليارات خلاياه العصبية والثلاثة ملايين مليار من وصلاته العصبية والكمية غير المحدودة من اتصالاته المتداخلة الممكنة، يتسع اي دماغ لمعلومات يعجز عن استيعابها اكثر الكومبيوترات تجهيزا وتفوقا.

اي تطور هذا، منذ التغيير الذي طرأ قبل ثمانية ملايين عام! اي تطور تبعه الدماغ منذ الانسان الاول ولم يكن يتجاوز اربعمئة ستتم مكعب وصولا الى الف وثلاثمئة وخمسين ستتم مكعب لدى الانسان المفكر او الحديث Homo Sapiens. وهل توقف دماغنا مذاك عن التطور؟ اذا كان الانترويولوجيون يقدرون انه فيزيكياً استقر منذ خمسين الف عام، نلاحظ في المقابل حالات فريدة كحالة الشاعر بايرن اذ بلغ دماغه الفين ومئتين وثلاثين ستتم مكعب. مع ذلك، لا شيء، او تقريبا لا شيء يميزنا في ارثنا الجيني عن ارث القرود. الـ"أ.د.ن." ADN لدى القرد الكبير (الشمبانزي) مطابق ٩٩ في المئة للذي لدى الانسان لكنه الواحد في المئة المتبقي الذي يشكل، بالطبع، كل الفرق. رغم تماثله مع ادمغة باقي الثدييات لناحية العاطفة والانفعال، فان خصوصية الدماغ البشري تكمن في مادة الكورتكس، المادة السنجابية الشهيرة، حيث خمسة عشر مليون خلية عصبية تنظم انبل المهمات في عملية الادراك: الوعي والفكر.

لم يعد الذكاء اليوم يعتبر شأنا جينيا، اتفق الباحثون على ان التطور الحضاري والسهولة التي منحها الوقوف عموديا، هما اللذان اديا الى تطور الدماغ والعكس

غير صحيح. لكن هذه النظرية غير كافية ولا تزال ثمة تساؤلات والكثير من الغموض حول حقيقة الموضوع. احد اشكال هذا الغموض، الطبيعة الملتبسة للعبقرية التي ما لبثت الى يومنا هذا تشكل لغزا حقيقيا.

كيف يصنع العالَم العبقرية؟

ان لم يصبح جميع المتفوقين عباقرة، فجميع العباقرة تقريبا كانوا في البداية متفوقين. والمثل الاوضح على ذلك موزار الذي كان في الرابعة فقط عندما انجز مؤلفه الاول، الكونشرتو لبيانو. الا ان النضج الباكر في الذكاء العلمي او الفني، والمعرفة التلقائية اي العفوية لا يعنيان الكثير. في طفولته، كانوا يحسبون آينشتاين متخلفا عقليا: كان بطيئا، منطويا على ذاته، منعزلا، ولم يتكلم قبل سنه الثالثة. واذا كان باسكال قد اخترع نظريته في الخامسة عشرة من عمره وآلته الحاسبة في الثامنة عشرة، فان عباقرة اخرين لم يظهروا الا في السن المتأخرة امثال سوفوكل الذي انتظر بلوغه الخامسة والسبعين ليكتب "اوديب ملكا"، او غوته الذي انتظر من ناحيته بلوغ الحادية والثمانين لكتابة "فاوست".

كانت كلمة عبقرية غير قابلة للتحديد، فعلى الاقل يبقى لنا شيء واحد اكيد: ليس ثمة عبقرية مجهولة. ظهرت هذه المفردة في عصر النهضة، نابعة من اللاتينية لتملأ كل معناها في عصر الانوار. بالنسبة الى كانط الـ"عبقرية هي التهيّؤ الفطري للروح الذي من خلاله تعطي الطبيعة قوانين الفن". اما الرومنطيقيون فيرون في العبقري انسانا مختلفا، نصف - انسان ونصف - آلة، وفي الوقت ذاته أعلى من سواه وابعد منه بل في مكان اخر. فكتور هوغو يقول في انفعال "اعمال العباقرة من شأن الفوق - بشري النابع من البشري".

الفرق الكبير بين العباقرة والمخترعين المحددين كالفرق بين بيكاسو غوتنبرغ. اي ان بيكاسو فريد، في حين ان اي شخص اخر كان استطاع ان يكون مكان غوتنبرغ

لو لم يكن الاخير موجودا. نيوتن، موزار، داروين، آينشتاين، بيكاسو، كل على طريقته غيّر عصره، اعطاه مجرى غيّر متوقع وغير قابل للتوقف.

العبقرية لا تفسر ذاتها، يقول كلارك، بل تفرض نفسها. "العباقرة مهووسون احاديون (اي يفكرون في فكرة متسلطة واحدة) انانيون. انهم مبدعون مثابرون، عمال ذوو خيال خصب".

غير مكترثين بالانتقاد، واثقون من حقوقهم، لا يبقى امام العباقرة، عادة، سوى ان يواجهوا مغتابينهم بثقتهم الكبيرة بصحة اختراعهم. وينطوي ذلك احيانا على اخطار: غاليليه عاش التجربة على حسابه.

هل كان انطونان ارتو مجنونا عبقريا، ام عبقريا مصاب بالجنون؟ ونيتشيه ونرفال وهولدرلين؟ "يحبسونهم ويقيدونهم بالسلاسل او يرفعون لهم التماثيل". وكان ديدرو يكتب عن اولئك العباقرة القابلين للجدال: "الفرق الوحيد بيني وبين المجنون، هو اني لست مجنونا" كان يقول دالي.

بالنسبة الى بعض اطباء الاعصاب، العقول العلمية قد تكون اكثر استخداما للدماغ في جهته اليسرى، وقد تتكىء العقول الفنانة اكثر على الجهة اليمنى منه. نظرية قابلة للجدال ومنتقدة في الوقت عينه. حتى الان وفي كل الاحوال، لم يعثر لدى العباقرة على اي فرق ظاهر في بنية الدماغ. بعد وفاته، قطع دماغ اينشتاين الى مئتين واربعين رقيقة، من اجل لا شيء! واظهرت التحاليل ان حجم دماغه اصغر من الحجم العادي. هل يجب اذن الكلام على تشوه ما؟

ثمة في الجهة اليسرى من دماغ شوستاكوفتش شظية قنبلة صغيرة كانت تسمعه كلما احنى رأسه جانبا انغاما مختلفة. ولم يقبل على الاطلاق انتزاعها.

الحكمة الضائعة في العبقرية

نحن نعجب بالعبقرية والعباقرة لعدد كبير من الأسباب. لعل من أهمها أننا نعجب بإنجازاتهم وأعمالهم العظيمة التي لا تخفى علي الناس وتصل نتائجها غالبا إلى الملايين من البشر لتضفي علي حياتهم المتعة والراحة والشعور بالسيطرة علي البيئة والنفس. لقد غير "جاليليو" و"نيوتن" من مفاهيمنا عن العالم الطبيعي والبيئة المادية، ومثلهما فعل "داروين" و"أينشتي" و "زويل". وأثري "باخ" و "موزارت" حياتنا بما ابتكروا من موسيقي وألحان، ومثلهما فعل "بتهوفن" و"تشايكوفسكي" و"هندل" .

فضلا عن هذا، لا يقتصر إعجابنا بالعبقرية والإبداع على تلك المنجزات بل تتعداها إلى أشياء أخرى. فعبقرية "شكسبير" مثلا لا تقتصر على الآفاق العقلية غير المتناهية التي فتحها أمامنا من خلال مسرحياته، بل امتد بآثاره علي اللغة الإنجليزية ذاتها مطورا إياها ومحققا من خلال الكلمة واللغة عوالم وآفاق لم تكن موجودة من قبل ولم يعد بإمكاننا الاستغناء عنها بعد اكتشافها. ومثله فعل "نجيب محفوظ" لا بالأعمال الروائية العظيمة التي أبدعها فحسب بل بما تركه من آثار عميقة في اللغة والنقد والأدب، والسلوك البشري والاجتماعي. وأضافت مساهماته للأدب العربي والعالمي الكثير بمقاييس التذوق الفني والأصالة والوعي بالحياة الإنسانية بحيث لم يعد بإمكان العقل أن يتقلص في فهمه وتذوقه للحياة البشرية إلى ما كان عليه من قبل.

فالمبدع العبقري إذاً إذا أردنا أن نعرفه بشكل عام: شخص استطاع أن يتجاوز المقاييس العادية من خلال أعماله الخلاقة في الأدب أو الفن أو العلم، أو أي حقل من حقول المعرفة والنشاط.

ولأن العمل الإبداعي يحقق الكثير لصاحبه ولمجتمعه، ولأنه يتطلب قدرات شخصية هائلة لا تكون عادة متوفرة أو محتملة أو ممكنة للآخرين، تطورت نظريات واتجاهات فكرية مختلفة تفسر سلوك المبدعين بالاضطراب العقلي والجنون. ولكثرة ما كتب مؤيدا لهذا الرأي، أصبحت صلة الإبداع بالجنون والاضطراب النفسي هي الأمر الشائع والقريب للذهن عند تفسير الجوانب الغامضة والمبهمة في سلوك المبدعين وتطور العملية الإبداعية.

ويعتبر هذا الموضوع إعادة قراءة، أو بالأحرى إعادة تنظيم للوقائع والأفكار المتجمعة عن موضوع الصلة بين العبقرية والجنون أو بلغة نفسية معاصرة عن الإبداع وصلته بالاضطراب النفسي. رؤيا تضم بعض الحقائق الرئيسية التي تراكمت في دراسة السير الذاتية للمبدعين، فضلا عن النتائج التي ولجت ميدان علم النفس إثر تطور حركة القياس النفسي، وما ساندها من تجارب علمية متخصصة. وتضم بعض الحقائق المعاصرة عن طبيعة المرض النفسي والعقلي، لنقارن بين الخصائص الشخصية والضغوط التي تسود حياة المبدعين، والمرض النفسي أو العقلي بالمعني الإكلينيكي المتعارف عليه.

أما لماذا بقي التفسير المرضي للإبداع قائما بالرغم من كل النتائج المعارضة لذلك، فقد كان في تصورنا راجعا في كثير من جوانبه لعدم الإلمام ببعض المفاهيم الحديثة في علم النفس بما فيها مفهوم الضغوط النفسية، وخلطه بمفهوم المرض النفسي. ولهذا خصصنا الفصل السادس لمناقشة الضغوط التي تفرضها أحداث الحياة علي المبدع. فالمبدع يتعرض لنصيب وافر من المنغصات التي تأتيه من جهات متعددة، وجوانب متنوعة من الضغوط النفسية والانفعالية والاجتماعية تثيرها: حاجاته الخاصة للنمو و الارتقاء بعمله، والتجويد في أدائه. وظروفه الصحية والمادية والمعيشية، والتي قد يتعارض إشباعها على نحو شديد مع احتياجاته للاستمرار في عمله وممارسة واجباته الإبداعية .

والمبدع في نفس الوقت يعيش في مجتمع له أيضا متطلباته الخاصة التي يحاول أن يفرضها على الفرد المبدع، بما في ذلك حتى القيمة التي يراها في إبداعات هذا الشخص، ومدي ما يمنحه للعمل الإبداعي من اعتراف أو تقدير أدبي أو مادي.

فضلا عن هذا وذاك، هناك الأخطاء الشخصية التي يرتكبها المبدع في حق نفسه أو في حق الآخرين. إن كل ما يتعلق بالعوامل المزاجية وسمات الشخصية وأساليب التعامل الاجتماعي الخاطئة، والتقلبات الانفعالية جميعها تنتمي لهذه الفئة من العوامل .

و لابد أن نعترف مع هذا أننا لم نهدف بتقديم هذه الرؤيا إلا التمهيد لطريق مختلف من الفهم لوقائع موجودة بالفعل، وليس إلي تقديم رؤيا جديدة تنشد الكمال أو شيئا قريبا من الكمال. أجل التمهيد لطريق مختلف يمكننا من خلاله الإشراف على مشهد جديد وصياغة مختلفة لوقائع موجودة في دراسة هذا الموضوع الحيوي لا أكثر ولا أقل.

العبقرية بين تيارين من التفكير :

في عبارة متهكمة، وصف "برتراند راسل" "أر سطو" قائلا: "ذكر أر سطو أن للنساء عددا أقل من الأسنان، ولكنه (أي أرسطو) و بالرغم من أنه تزوج من امرأتين لم يكلف نفسه مرة أن يقوم بفحص "فم" أي من زوجتيه ليتحقق من صحة هذا الرأي المزعوم".

وهي عبارة تكشف بوضوح عن الفرق بين العلم والفلسفة في عبارة تهكم فيها "راسل" من سيطرة الفكر اليوناني، وافتقاد "أرسطو" لأبسط قواعد العلم عندما تبني هذا الزعم الذي تدحضه كل الملاحظات. وبذلك تخلى "أرسطو" عن حقيقة رئيسية تصف العلم والتفكير العلمي، لأن العلم يعتمد على احترام الوقائع وعلي تقديم البراهين لإثبات الرأي أو دحضه.

وفي موضوع كالعبقرية والإبداع وصلتهما بالمرض النفسي، يلاحظ المتتبع للتفسيرات الفلسفية والنظرية العامة لهذا الموضوع شيئا من هذا الخلط. فنجد الكثير من المزاعم المنتشرة في الأوساط الثقافية العامة بأن العبقرية والإبداع يلتحمان بالجنون دون أن نكلف أنفسنا البحث و النظر في عشرات الملاحظات الداحضة والمعارضة لهذا الرأي.

عالم الإبداع عالم مثير ومليء بجوانب من البحث والدراسة لا تزال خافية عن البعض، ودوافع العمل الإبداعي لا تخلو من التعقيد، وحياة المبدعين نتاج لكثير من العناصر النفسية والاجتماعية والحضارية التي لا يجوز التعامل معها بالتبسيط والاستخفاف، لأن ما يقدمه الإبداع والمبدعون للمجتمع، ولحياتنا بجوانبها التكنولوجية والفنية والاقتصادية والفكرية كثير وملئ بالثراء والعطاء. ولعلنا لا نبالغ إن ذكرنا بأن كل جوانب التقدم (وربما الهدم والدمار)، في أي جانب من جوانب الحضارة والثقافة الإنسانية مرهون بما تقدمه هذه الحفنة البسيطة من العقول اللامعة والمبدعة في أي مجتمع. و لهذا فمساهمات الإبداع والمبدعين في حياتنا أمر لا يجوز إغفاله وينبغي معرفة شروطه ودراسته علي نحو يسمح لنا بالاستفادة الملائمة بتلك الإسهامات.

ومع ما للقدرات الإبداعية من أهمية، فإن دراستها ومعرفة شروط نموها، والعوامل التي تيسر ظهورها، أو التي تعوق هذا الظهور لازالت محدودة بشكل مؤسف. فلازالت دراسة الموهبة الإبداعية متروكة لتيارين متطرفين من التفكير. يغرق أحدهما في تعميمات نظرية فضفاضة، وهو التيار الذي تتبناه طائفة كبيرة من المفكرين والفلاسفة ونقاد الأدب والفن، وبعض المتمين لنظريات التحليل النفسي الفرويدي المبكرة. أما التيار الآخر فيغرق في الاهتمام بجمع وقائع جزئية يتعذر في كثير من الأحيان وضعها في إطار متسق من التفكير والنظر.

ويبدو أن صلة الإبداع بالمرض النفسي والعبقرية قد عانت أكثر من غيرها من موضوعات السلوك الإنساني من تجاذب هذين التيارين. فلا زال المدقق في دراسة هذا الموضوع يجد نظريات فضفاضة ورثناها من التفكير الفلسفي الممتد في مئات الأعوام الماضية من حياتنا الفكرية والحضارية الماضية، وهو التيار الذي يربط علي نحو آلي بين العبقرية والجنون، ويري أن العبقرية دالة على الجنون، أو أن في الجنون نوع من العبقرية.

وكان من الطبيعي أن يتبلور بفضل تقدم المنهج العلمي، اتجاه علمي معارض لهذا الاتجاه الفلسفي الفضفاض بهدف دراسة الصلة بين العبقرية والمرض، وهو ما يمثل الاتجاه الثاني من التطور.

وقد سيطر علي هذا التيار- الذي يمكن أن نطلق عليه تيار القياس النفسي- الدارسون المنتمون لعلم النفس التجريبي، والتحليل العاملي وما يستند إليه من علاقات وارتباطات إحصائية. وهو تيار -بالرغم من أننا لا نستطيع أن نغفل إمكانياته الهائلة-لم يخلو من بعض المثالب. فقد أغرق أصحابه بجمع وقائع جزئية، انطلاقا من مفهوم ضيق عن الموهبة الإبداعية.

نمو حركة القياس النفسي الممثلة لهذا التيار الثاني من التفكير، قدمت إنجازات هائلة في دراسة الإبداع بشكل عام، فأصبح لدينا- بفضل حركة القياس النفسي وتطورها علي مر السنين الماضية- عشرات من مقاييس العمليات العقلية العليا (كالإبداع)، ومقاييس المرض النفسي والصحة النفسية. وهناك مع ذلك كثير من التحفظات التي تؤخذ علي حركة قياس العمليات العقلية العليا- كالإبداع أو الذكاء- بحجة أنها أشياء تتعذر علي القياس والتقدير. وبالرغم من هذه التحفظات، فإن أصحاب هذا الاتجاه، تجدهم يتفقون مع المقولة التي دعا لها العالم الأمريكي "ثور نديك" منذ أكثر من ٥٠ عاما بأن كل شيء موجود يوجد بمقدار، ولهذا يمكن قياسه."

وصحيح أن ما قدمه هذا التيار العلمي من اهتمامات مكثفة قد ساهم في إزالة الكثير من جوانب الغموض في دراسة الصلة بين العبقرية والمرض، لكن الدارسين الذين اعتنقوا هذا التيار أغرقوا للأسف في التركيز الضخم علي التكنيك، وجمع الوقائع المجزئة مما عرقل من النمو المعرفي المدقق في فهم الظواهر المحيطة بالإبداع من جهة والظروف الاجتماعية و عوامل الشخصية من جهة أخري. ولهذا كان من الصعب علي الباحث أن ينتقل من دراسة القدرات الإبداعية كما يقيسها علم النفس المعاصر، إلي دراسة الإنسان المبدع الفعلي في بيئته الفعلية، وأصبحت الفائدة التي جنيناها بفضل ٥. عاما من التطور في الدراسات التجريبية-النفسية لهذا الموضوع محدودة.

قبل أن أترك هذه النقطة، أسارع إلي القول أنني لا أود أن أقحم نفسي في الدفاع عن هذه النظرية أو تلك، ولا أود أن أتورط في تعميمات عن صحة أي منهما. كما أنني لا اعتقد أننا في حاجة لتبني وجهات نظر كاملة تدعو لها مدرسة أو أخرى من التفكير السيكولوجي أو الفلسفي. إننا لمحتاج في الفترة الراهنة لإعادة النظر فيما تجمع لدينا من حقائق فلسفية أو تجريبية، ولمحتاج لإعادة قراءتنا للبحوث التجريبية وللجهود النظرية علي السواء والتي تراكمت علي مر الأعوام السابقة في دراسة هذا الموضوع الحيوي: صلة العبقرية بالمرض النفسي. ولمحتاج لعملية تنظيم بين الوقائع المتجمعة. عملية تنظيم وقائع أي في وضعها في قالب نظري يجمع ببين نتائج التيارين السابقين من التفكير في نظام نظري متسق، يسمح بمواصلة البحث، وبالاستفادة التطبيقية بما أنجزنا من تفكير أو فهم لهذه العلاقة.

ولمحتاج فضلا عن هذا أن نضم عند إعادة قراءتنا، وإعادة تنظيمنا لهذه الحقائق الفكرية والتجريبية المتجمعة عن الصلة بين الإبداع والمرض، أن نضم إليها رؤية تركز على حقيقة ما يلعبه الصراع الاجتماعي في حياة المبدعين.

فالعمل الإبداعي في حقيقته يعني ابتكار شيء جديد عن الموضوع الذي نبدع فيه، أي شيء مختلف عما اعتاد عليه الذهن أو التفكير السائد من تصورات وحلول تقليدية. ولهذا فالعمل الإبداعي مهدّد للآخرين بطبيعته. مهدد من حيث أنه يقدم رؤيا مختلفة، والشيء المختلف لا يثير الترحيب دائما.

والعمل الإبداعي مهدّد من الناحية العملية للآخرين وأصحاب مراكز القوة الفكرية والعلمية والأكاديمية في داخل المجتمع والمستفيدين بالشكل التقليدي السائد من التفكير والنظريات. والشيء المهدد في العادة مثير للنفور، والاعتراض والاحتجاج والمخاصمة. ومن ثم، فإن عمليات الصراع الاجتماعي تبرز كما لو كانت أحد البديهيات الرئيسية في دراسة الإبداع.

ولا يمكن في تصورنا فهم الصلة بين الإبداع والمرض دون أن ندرس ما تتركه هذه الصراعات والمشاحنات الاجتماعية من نتائج علي السلوك، والشخصية. ومن ثم فإن أي إعادة قراءة للإبداع من حيث صلته بالمرض النفسي أو العقلي لابد أن تستفيد بما تقدمه دراسات علم النفس الاجتماعي المعاصر.

ونحتاج أيضا أن نضم إلي رؤيتنا ما قدمته العلوم النفسية المعاصرة في دراستها للعوامل التي تحكم العلاقات بين الظواهر الفكرية (كالإبداع)، والظواهر الانفعالية والشخصية والصحية (كالمرض النفسي والعقلي والجسمي)، ونعني هنا بشكل خاص ما يسمي بعلم النفس الطبي. فقد قدم علم النفس الطبي- الذي يعتبر من أحدث الفروع المعاصرة في علم النفس خلال السنوات العشر الماضية_ قدم كثيرا من المفاهيم التي يري الكاتب الحالي أنه ستكون لها نتائج هامة في فهم كثير من جوانب الصحة والمرض في حياتنا بشكل عام، وفي حياة المبدعين بشكل خاص.

ومن المفاهيم التي قدمها علم النفس الطبي: مفهوم الضغط النفسي أو الضغط الانفعالي emotional stress. وأعتقد شخصيا أن هذا المفهوم سيساعد علي إعادة فهمنا لكثير من جوانب الصحة أو المرض، وأن نتناول هذه الجوانب بطريقة

أكثر رحابة، وأكثر تجاوزا للمفاهيم التقليدية التي ورثناها من الطب النفسي المعاصر، والتي كانت تطبق علي نحو متعسف في أي محاولة لفهم العبقرية والعباقرة.

إذن فقد وصل علم النفس الطبي في العقدين الأخيرين مرحلة من التطور لم يعد من المقبول في ضوء ما حققه من إنجاز أن ننظر للمبدع علي أنه مصاب بالفصام أو الهستيريا، أو المرض العقلي لمجرد وجود تشابه جزئي في الأعراض التي تصف المصابين بهذه الأمراض، وبعض الأعراض التي تتملك المبدعين عندما يكونوا تحت تأثير الضغوط النفسية التي يفرضها العمل الإبداعي ذاته أو ما يثيره هذا العمل في الوسط الاجتماعي المحيط بالمبدع.

وتحتاج إعادة قراءتنا، أيضا، لرؤيا تهتم بتشخيص المشكلة وعلاجها معا. فعمليتي التشخيص والعلاج كما يراها العالم النفسي المعاصر عملية تلتحم بالتشخيص. فعلم النفس المعاصر لا يكتفي بالقول بأن الإبداع يرتبط أو لا يرتبط بالمرض النفسي أو العقلي، بل يهتم بتحديد الشروط النوعية التي إن وجدت كان من السهل تحديد هذه الصلة أو نفيها. وهي العملية التي جري عرفنا نحن العاملون بحقل الصحة النفسية بوصفها بأنها عملية التشخيص. ولا يكتفي العالم النفسي بالوقوف عند عملية تشخيص المشكلة، ومعرفة شروطها، بل وأصبح قادرا علي أن يقدم العلاج، من خلال إما: التحكم في هذه الشروط، وتقديم المقترحات العملية التي تساعد علي إزالة الشروط المنفرة التي من شأنها أن تؤثر في القدرة الإبداعية والمبدع سلبا، أو تكوين شروط إيجابية تساعد علي خلق شروط صحية مرغوبة تضمن للمبدع الاستمرار في نشاطاته الإبداعية بأكبر قدر ممكن من الصحة والحيوية، أو من خلال:

الجمع بين هاتين العمليتين معا أي أن يساعد علي إزالة شروط منفرة ومعارضة للصحة النفسية مع تدعيم وخلق شروط إيجابية تزيد من الرصيد الصحي والفاعلية.

لهذا فالتقدم المعاصر في علم النفس الإكلينيكي السلوكي، وما يقدمه من مناهج تساعد علي تعديل السلوك علي نحو صحي، يعتبر من أحد المكاسب الرئيسية التي لم نجد- في حدود علمنا- من أولاها اهتماما يذكر عند الحديث عن الإبداع والمرض. فالمبدع فوق كل اعتبار آخر هو إنسان، معرض كغيره لكثير من الضغوط، (بل هو معرض لهذه الضغوط أكثر بكثير من الآخرين لأسباب سوف نتعرض لها في مواقع مختلفة من هذا الكتاب). والمبدع لهذا يحتاج للاستفادة من الدروس التي تقدمها حركة العلاج النفسي والسلوكي المعاصرة لتخليص حياتنا من الشوائب المرضية التي تتملكنا بين الحين والآخر.

****

مابين المخ البشري ومخ العباقره

هل يختلف المخ البشري عن مخ العباقره ؟

ان العلماء عندما فحصوا مخ انشيتين بعد وفاته وجدوا ان مخه يشبه اي مخ بشري عادي جدا ، فبحثت عن موضوع تشريح امخاخ العباقرة فوجدت انه موضوع متعارف عليه من قبل انيشتين .

تاريخ لغز امخاخ العباقرة :

شغل العلماء بفكرة ارتباط القدرات العقلية للانسان بالتركيب التشريحي للمخ ، و هي الفكرة التي كثيرا ادت الي فحص امخاخ العباقرة بعد موتهم لمعرفة اسرار تفوقهم .

و في هدا المجال تم تشريح امخاخ الكثير من العباقرة و العلماء . متل الفيلسوف رينيه ديكارت و الموسيقار باخ الي ان وصل عدد العباقرة الي ١٣٧ شخصا تم تشريح مخهم.

و لكن لم يصل علماء التشريح في هدا الوقت الي نتيجه تدل علي وجود اختلافات بين مخ هؤلاء العباقرة و مخ البشر العادي .

في عام ١٩٢٤ توفي الزعيم السوفيتي فلاديمير لينين و تم استدعاء العالم الالماني اوسكار بدعوه رسمية من روسيا لتشريح مخ لينين .

و بعد فترة من دراسته اكتشف وجود اختلافات بين مخه و مخ البشر غير ان لم يعلق اي شخص اهمية .

لاكتشاف اوسكار حيث ان لينين اصيب بالكثير من الجلطات بالمخ فأعتقدوا انها السبب في وجود اختلاف في المخ .

واخر العلماء اللذين فحصت امخاخهم كان انيشتين عام ١٩٥٥ بعد وفاته حيث ان انيشتين طلب من العلماء تشريحه مخه بعد وافاته و وافقت اسرته على ذلك و قام بتشريح المخ و حفظة بالطريقة العلمية السليمة .

الا ان هارفي بعد فترة من دراسته لم يجد اي اختلافي في مخ انيشتين يميزه عن اي مخ بشري عادي ، لكن بعد مرور اكثر من ربع قرن حدث ثورة في التقدم العلمي و التشريحي للمخ مما جعل اعادة تشريح مخ انيشتين امر ملح .

و فعلا اعيد تشريح اربع قطع صغيرة من مخ انيشتين في جامعة كاليفورنيا و تم مقارنتها ب ٤٤ قطعه مماثلة من نفس المناطق من ١١ شخص ماتوا في سن انيشتين و وجد العلماء ان نسبة الخلايا المكونه لنسيج مخ انيشتين تختلف و تزيد في نسبتها عن الاخرين و ذلك في منطقتين في المخ معروفتين بمسؤلتيهما عن التخطيط و التحليل المنطقي و الرياضي .

و مره اخري في عام ١٩٩٩ اعيد تشريح مخ انيشتين للمره الثالثه في جامعة ماكماستر بكندا و اعلن فريق البحث ان مخ انيشتين يخلو من جزء من اخدود معروف يوجد في مخ البشر و اعتبر العلماء ان غياب ذلك الجزء من الاخدود

يمكن انو يكون سببا في سرعة توصيل المعلومات بين المنطقتين الواقعتين علي جانبي الاخدود في مخ انيشتين

و اضاف ايضا فريق الباحثين ان مساحة هذه المنطقه اعرض من المألوف ب ١٥٪
كما رأينا ان مخ انيشتين كان جدير بالبحث و الاهتمام . الا ان المخ البشري بشكل عام جدير بهذا الاهتمام اذ انه لغز كبير .

مخ الانسان البالغ يبلغ حوالي ١٤٠٠ جرام ، و يتكون من نوعين من الخلايا و هما الخلايا العصبية و خلايا اخرى داعمه تعرف بالخلايا الغراء ، و يبلغ عدد الخلايا العصبية في المخ حوالي مائة الف مليون خلية . و تتكون الخلية العصبية بشكل عام من الزوائد الشيجرية و زائدة واحد طولية و تسمي المحور و تنتهي بالتفرعات اللانتهائية ، و تتصل التفرعات اللانتهائية في احد الخلايا بالتفرعات النهائية في خلية اخري . و تسمي مناطق اتصال الخلايا العصبية ب التشابكات العصبية .

اما الخلايا الغراء فعددها اكثر من الخلايا العصبية عشر مرات و سميت بالغراء لانها تملأ الفراغات بين اجسام الخلايا العصبية هي الفاعل الرئيسي في الجهاز العصبي لانها تتلقي الاشارات العصبية ثم تعيد ارسالها الي جهات اخرى او تتجرمها الي سلوك معين .

ومن الواضح ان الخلايا العصبية تتمتع بقدارات خارقةو غامضة فخصائصها الفسيولوجيه و نشاطتها و افرازتها الكيميائية هي المسؤل عن الاحساس والعاطفه و الالم و التفكير و الخوف و الجرأه .

فكر كما يفكر العباقرة

حتى لو لم تكن عبقرياً ، يمكنك استخدام الاستراتيجيات ذاتها التي استخدمها أرسطو وأنشتاين لتسخير قوى عقلك وتفكيرك الإبداعي لإدارة مستقبلك بشكل أفضل" .

إن الاستراتيجيات الثماني التالية تشجعك للتفكير بشكل فاعل من أجل التوصل إلى حلول للمشاكل. "وهذه الاستراتيجيات شائعة بالنسبة لأساليب تفكير العباقرة المبدعين في مجال العلوم والفنون على مر التاريخ" .

الاستراتيجية الأولى :

- أنظر إلى المشاكل بطرق عديدة ومختلفة .
- أوجد جوانب جديدة لم يتطرق إليها أحد (أو لم يعلن عنها أحد !) .

لقد رأى ليوناردو ديفنتشي أنك إذا أردت اكتساب المعرفة عن مضمون مشكلة ما ، فإنه عليك أن تبدأ من خلال التعلم حول كيفية إعادة هيكلة هذه المشكلة بطرق عديدة ومختلفة .

لقد شعر أن الطريقة الأولى في النظر إلى المشكلة ، تكون غير موضوعية بشكل كبير . ففي كثير من الأحيان نجد أن ذات المشكلة تعاد هيكلتها ، وتصبح مشكلة جديدة .

الاستراتيجية الثانية :

استعمل الصيغ التصويرية !

عندما كان أينشتاين يفكر في حل مشكلة ما ، فقد كان يجد أنه من الضروري أن يصيغ موضوعه بأكبر عدد من الطرق ، بما في ذلك استخدام الرسم البياني . وفي النهاية يقدم حلولاً مصورة دون حاجة لاستخدام أرقام وكلمات لم تلعب دوراً ذا أهمية في عملية التفكير لديه .

الاستراتيجية الثالثة :

أنتج !

الإنتاجية صفة مميزة للعبقري ، لقد سجل توماس أديسون ١٠٩٣ اختراعاً . لقد عمل على تشجيع وضمان استمرار الإنتاجية من خلال تحديد حصص معينة أو عدد معين من الأفكار التي يجب عليه وعلى الفريق الذي يعاونه أن يأتوا بها .

في دراسة قام بها (دين كيث سيمونتون) من جامعة كاليفورنيا في ديفيز ، شملت ٢٠٣٦ عالماً عبر التاريخ ، وجد فيها أن أعظم العلماء هم ليسوا الذي ينتجون الأعمال الجيدة فحسب بل الكثير من الأعمال السيئة أيضاً. إن هؤلاء العلماء لم يكونوا يخافون الفشل أو إنتاج أعمال متوسطة الجودة وذلك على طريق الوصول إلى تحقيق الأعمال الممتازة.

الاستراتيجية الرابعة :

اصنع مجموعات جديدة .

إمزج وأعد تجميع الأفكار ، والصور ، واحصل منها على مجموعات أو تشكيلات مختلفة بغض النظر عن غرابتها أو خروجها عن المألوف .

إن قوانين الوراثة التي يقوم على أساسها علم الجينات الحديث ، جاء بها القس النمساوي (جريغور منديل) ، الذي قام بالجمع ما بين علم الرياضيات وعلم الأحياء للوصول إلى مبادئ وقوانين جديدة في علم الوراثة .

الاستراتيجية الخامسة :

كوّن علاقات وأنشئ روابط بين المواضيع مهما بدت لك غير متشابهة !

فقد أوجد (دافينتشي) علاقة ما بين صوت الجرس وبين صوت الحجر الذي يسقط في الماء . وقد مكنّه ذلك من الربط واستنتاج حقيقة أن الصوت ينتقل على شكل موجات .

وقد قام (ساموبل مورس) باختراع محطات المتابعة الخاصة بإشارات التلغراف ، وذلك من خلال ملاحظته لمحطات المتابعة الخاصة بالخيل .

الاستراتيجية السادسة :

فكر بالمتضادات !

لقد اعتقد الفيزيائي (نيلز بور) أنك إذا درست شيئين متضادين فإن مستوى تفكيرك يرتفع نتيجة لذلك . لقد أدت نظرته للضوء كجزيء وكذلك كموجة إلى توصله إلى مبدأ التكاملية . إن تعليق الفكر (المنطق) قد يسمح لعقلك بأن يخلق شكلاً جديداً .

الاستراتيجية السابعة :

فكّر بشكل مجازي !

لقد اعتبر (أرسطو) أن استعمال المجاز أو الاستعارة هو من علامات العبقرية . كما أنه اعتقد أن الشخص الذي يملك القدرة على الإحساس بأوجه التشابه ما بين حالتين منفصلتين من الكينونة ، وعلى ربطهما ببعضهما ، لا بد أن يكون شخصاً ذا مواهب متميزة .

الاستراتيجية الثامنة :

الاستعداد للفرصة !

كلما حاولنا القيام بشيء ما وفشلنا ، نلجأ إلى القيام بشيء آخر . وهذا هو المبدأ الأول للصدفة الإبداعية . إذ يمكن أن يكون الفشل مُنتجاً بمجرد عدم اعتباره شيء أو نتيجة عقيمة . إذ يجب علينا تحليل العملية ومحتوياتها ومعرفة كيفية تغييرها للوصول إلى نتائج أخرى . وأن لا نطرح السؤال "لماذا فشلت ؟" بل "ما الذي قمت به ؟"

المراجع

- المعجم الموسوعي في علم النفس/ نوربير سيلامي
- درويش ، أيمن سيد ، اختبر معدل الذكاء وضاعف قدراتك الذهنية ، الفرد مونزرت ، مترجم ، حلب ، سوريا ، شعاع للنشر والعلوم ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠.
- حسن ، حسن مرضي ، مدخل إلى فهم الذكاء ، دمشق، سوريا ، الأولى للنشر والتوزيع بدون سنة طبع.
- جابر، جابر عبد الحميد ، الذكاء ومقاييسه ، القاهرة ، دار النهضة العربية، دون تاريخ ٥- عبد الغفار، محمد عبد القادر ؛ القريطي ، عبد المطلب أمين ، مبادئ علم النفس ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٩٧ .
- ياسين، عطوف محمود ، اختبارات الذكاء والقدرات العقلية بين التطرف والاعتدال ، لبنان ، دار الأندلس ، ١٩٨١ .
- أبو حطب ، فؤاد ، القدرات العقلية ، القاهرة ، مكتبة الإنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٦ .
- عبد الهادي مصباح ، العبقرية والذكاء والابداع ، الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٦
- روبرت سترينج ، أساليب التفكير ، مكتبة النهضة المصرية ، ٢٠٠٤
- جمال الدين الخازندار ، ذكاء المشاعر مدخل للتميز في القيادة ، ٢٠٠٥

الفهرس